

دكتور
محمد زكريا عناني
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الاسكندرية

تاريخ الأدب الأندلسي

دار المعرفية الجامعية
٤٠ بن سوتير - الأزارطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ بن قنالك السوس - الصالحين - ت ٥٩٧٣١٢٦

تاريخ الأدب الأندلسي

دكتور

محمد زكريا عناني

أستاذ بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفه الجامعيه
٢٨٣-١٦٣
٣٨٧ شارع النيل - الإسكندرية - ٥١٧٣١٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن تاريخ الأدب العربي حافل بالصفحات المشرقة ، مما يجعل منه أحد الآداب الكبرى في العالم وهو أدب ولد ناضجا أو بمعنى أدق إن أقدم ما وصل إلينا منه يحمل سمات الشخصية الأدبية الحية الأصيلة، الجديرة بأن تعيش على مر العصور ...

وينفرد الأدب الأندلسي من بين المراحل المختلفة بأنه يجمع مزايا كثيرة هي بنت اللقاء بين الشرق والغرب، ففيه الرصافة التي طالما بهرت الناس في الأدب العربي القديم ، وفيه الجدة التي تتحرك في الموشحات والأزجال و "الرومانسية" الطاغية التي تأتي عند ابن زيدون ، والظرف وخفة الروح التي تتمثل عند أبي الحكم الغزالي ، فيه - باختصار شديد - أروع ما يمكن أن يوجد في أدب أمة من الأمم ، ومن هنا لقيت كتب الأدب الأندلسي القديم كل تقدير، ومنها:

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام	المغرب في حلي المغرب
لعلج بن سعيد	قلائد الحقيان
الفتح بن خافان	مطمع الأنفس
الفتح بن خافان	زاد المسافر
لصفوان التجيبي	نفع الطيب
للمقريبي ... الخ	

فضلا عن عشرات الدواوين (مثل ديوان ابن عبد ربه ، وديوان ابن دراج وديوان ابن زيدون وديوان الأعمى التطيلي ..الخ) وعديد المجموعات وكتب الأدب الأخرى .

أما في العصر الحديث فقد أرخت لهذا الأدب أعمال متنوعة منها على سبيل المثال :

نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي	لكامل كيلاني
بلاغة العرب في الأندلس	ط. أحمد ضيف
الأدب الأندلسي	ط. أحمد هيكل
الأدب العربي في الأندلس	ط. عبد العزيز عتيق
تاريخ الأدب الأندلسي [جزءان]	ط. إحسان عباس
قصة الأدب في الأندلس	ط. محمد عبد المنعم خفاجه
الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه	ط. مصطفى الشكعة
عصر الجول والامارات [الأندلس]	ط. شوقي ضيف
بلاحة الشعر الأندلسي	ط. عمر الطفاق الخ ...

وهناك مئات الرسائل الجامعية ، والمؤلفات التي تتناول عصرا أو ظاهرة أو جنسا أدبيا أو شخصية بعينها ، يضاف إليها ما ألف المهتمون بتاريخ الأدب الأندلسي من المستشرقين ، ومن أهم هذه الأعمال :

مأخضرات في أدب الأندلس وتاريخها	ل بروفانسال
الشعر الأندلسي	نيكل
الشعر الأندلسي المقطعي [الموشحات والأزجال]	س. شترن
الشعر الأندلسي	أ.ج. جومث
الشعر الأندلسي	أ.ج. كراتشكوفسكي

وتأتي هذه المحاضرات لتحاول أن تستفيد من الدراسات التي سبقتها ،
وتعالج بصورة مبتكرة، عددا من أهم الظواهر والشخصيات الأندلسية، وقد
رعى فيها أن تكون مركزة وواضحة، وأن تدعم بنماذج تمثل عيون الشعر
الأندلسي على مر العصور .

ونسأل الله عز وجل أن يلهمنا الصواب ، ويهيئ مآفئد الخير.

ط. للشبيطة محمد رمضان

أستاذ الأدب العربي .

كلية الآداب جامعة طنطا

الأندلس ، عبقرية المكان والزمان

من المسلم به أن المادة الأدبية : ينبغي أن تكون جوهر الاهتمام ومركز الرؤية، ومع ذلك فإن لكل ابداع أدبي مجاله الزماني والمكاني الذي يولد فيه، وأيا كانت الاعتبارات "الذاتية" ، فإن الأمر لا يخلو من "موضوعية"، ومن الضروري أن نتعرف على الخطوط الرئيسية للبيئة والعصر والمجتمع حتى تزداد معرفتنا بالعمل الأدبي أصالة وعمقا و "الأندلس" في المفهوم العربي الإسلامي تشمل الفترة التي تبدأ بالفتح العربي - سنة ٩٢ هـ - وتمتد حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ كما تطلق تلك التسمية على كل الأقاليم المفتوحة من شبه الجزيرة الأيبيرية ، فها نحن أمام فترة تبلغ ثمانية قرون وتمتد ، مكانيا، امتدادا شاسعا، والشئ المسلم به، علاوة على هذا، أن التفهم الصحيح ينبغي أن يلقى الضوء كذلك على ما قبل الفتح، ولا يجعل من تاريخ سقوط غرناطة في أيدي الأعداء إلا مجرد نهاية لمرحلة سياسية ، على اعتبار أن التأثيرات العربية لم تنته بين يوم وليلة . ولن تشغلنا، في هذه المحاولة التفصيلات والتفريعات، إذ إن الفترة الزمانية والرقعة المكانية من الاتساع بمكان، وقد وقعت على أرض الأندلس في خلال ذلك، أحداث لا حصر لها، وبرزت ظواهر أدبية وثقافية وفنية بالغة الأثر ، ومن ثم فإن غاية مانصير اليه الآن أن نبرز الخطوط الكلية الموجزة، مكثفين بالإحالات على المصادر والمراجع، لمن شاء التوسع .

وربما كان من الضروري تحديد وتبسيط هذا الكم من الأسماء المتداخلة من قبيل شبه الجزيرة الأيبيرية " Peninsula Iberica " (التي تكتبها المصادر الغربية عادة Iberica) - والتي تشمل كل ما يعرف الآن باسم اسبانيا والبرتغال - ولا يعرف بالضبط منشأ هذا الجنس فهم "شعب مجهول الأصل والمصدر، عاصر في اسبانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر في اسبانيا كلها وجنوبي فرنسا فالأيبيريون على هذا

الحساب هم أقدم أمم غربى أوروبا^(١) وفى بعض المراجع أن الشعبين - الأيبيرى والقلتى اختلطت انسابهما بعد فترة من الحروب الدامية وكونا معا نسلا جديد عرف باسم القلتيبيرى Celtibères.

واما تسمية Espagne فإنها تنحدر من التسمية اللاتينية Hispania ولعلها تطوير عن لفظة Hespèrie التى كانت تعنى بلاد الغرب، وأما المصادر العربية فإنها لاتقدم مادة يعتد بها بالنسبة لهذه التسميات القديمة، وماكتب فى هذا الميدان يخضع لقدر من التصورات الأسطورية فمن ذلك ماياتى به المقرئ فى "نفع الطب" من أن هذه البلاد كانت أولا تحت سيطرة الأفارقة ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة، وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سُميت الأندلس اشبانيا ، وكر بعضهم أن اسمه اصبهان وهو الذى بنى اشبيلية، وكان اشبانيه اسما خالصا لبلد اشبيلية الذى كان ينزله اشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس، فالعجم الان بسمونه اشبانيا لأثار اشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا" ولا يبقى بعد هذا إلا اسم "الأندلس" الذى اكتسب هذه الصيغة على أيدى العرب الفاتحين، ولم يكن له وجود قبلهم، وليس معنى هذا أن الاسم محض ابتكار خالص .

وقد زعم ياقوت الحموى ، صاحب "معجم البلدان" أن التسمية تعود الى "أندلس بن طويان بن يافث بن نوح" وجاراه فى ذلك عدد من المصادر العربية، وهذا بدوره محض تفسير أسطورى لا يستند الى حقائق تاريخية واضحة ، وأما المراجع الحديثة فإنها تتفق فيما بينها على فرضية أن الاسم مشتق من فنداليشيا Wandaliccia نسبة الى الاقاليم الجنوبية (التى كانت تعرف قبلا باسم Baetica) والتى احتلتها قبائل الفندال الجرمانية - أو الفندالوس،

(١) الأندلس ، ص ٤١ (من دائرة المعارف الإسلامية)

مستغلة ضعف الدولة الرومانية - ثم كان الفتح العربى فتحولت الكلمة إلى الأندلس^(١) والأندلس - وسنستخدم هنا المفهوم العربى للكلمة - شبه قارة ترتبط بأوروبا بسلسلة جبال البرانس (البيرنيه) فى الشمال الشرقى، ومن أشهر المعالم فيها جبال سيرا نيفادا Sierra Nevada وسماها العرب: شارة، وجمعوها على شارات وفى ذلك يقول الشريف الادريسى:

" وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما خلفه فى جهة الجنوب يسمى اشبانية وماخلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة" الجبلية يعرف باسم جبل الثلج أو جبل (شليبر) ومن ثلوجه الهطالة - وهذا معنى: نيفادا - يتغذى نهر شنيل - على مقربة من غرناطة - وفى وصفه يقول أحد المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم

وشرب الحميا وهو شئ محرم

فارا الى نار الجحيم فإنها

أخف علينا من شليبر وأرحم !

وبذا فإن الأرض فى شبه الجزيرة الأيبيرية مرتفعة نسبيا كما تتسم بالجفاف ، وتغذى البلاد سلسلة من الأنهار أهمها الوادى الكبير Guadalquivir وله روافد منها نهر شنيل، وقد لخص المقرئ - نقلا عن

(١) راجع فى ذلك مادة "الأندلس" فى دائرة المعارف الاسلامية ومراجعها العديدة ود. الطاهر مكي، دراسات أندلسية - الفصل الأول - ود. أحمد هبكل فى مستهل كتابه "الأدب الأندلسي"

وبلاحظ أن نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية لم يكونوا يستعملون هذه التسمية إذ كانوا يطلقون نعت اسبانيا على الأراضى التى كانت خاضعة لنفوذ العرب بينما استعملوا أسماء خاصة للدلالة على المناطق التابعة لهم مثل قشتاله Castille وأراجون Aragon واشتورس Asturias الخ ثم أصبح لفظ الأندلس Andalucia يدل على المناطق الجنوبية والتى تضم غرناطة وقرطبة واشبيلية وأبضا مالقة وجيان وقادس ووليه .

غيره - طبيعة البيئة الأندلسية بقوله ان الأندلس عند علماء أهله أندلسان:
فالأندلس الشرقي منه ما صبت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من
أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة
والأندلس الغربي ما صبت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من
ذلك الحد إلى ساحل المغرب فالشرقي منهما يطر بالرياح الشرقية ويصلح عليها،
والغرب يطر بالرياح الغربية وبها صلاحه، وجباله هابطة إلى الغرب جبلا بعد
جبل، وإنما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال أمطارهما وذلك أنه مهما
استحكمت الرياح الغربي أكثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي ومتى
استحكمت الرياح الشرقية أكثر مطر الأندلس الشرقي ومحط الغربي، وأودية هذا
القسم تجرى من الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة والأودية التي
تخرج من تلك الجبال تقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق وتنصب كلها
إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي، وما كان من
بلاد جوفى الأندلس من بلاد جليقية وما يليها، فإن أودينه تنصب إلى البحر
الكبير المحيط بناحية الجوف" وقد انعكست ظواهر الطبيعة هذه على الإبداع
الأدبي بصورة واضحة - على ما سترى - وهذا ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم

ولو تخيرت هذا كنت اختار

ومن ذلك أيضا تلك الأبيات التي تنسب إلى شاعرة أندلسية تدعى

حمدة بنت زياد المؤدب :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألد من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلطم جانب العقد التنظيم

ولا بن خفاجة :

أن للجنة بالأندلس
مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب
ودجى ليلتها من لعس
وإذا ماهبت الريح صبا
صحت : واشوقى إلى الأندلس

وقيل فى مناقب الأندلس أنه "يشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة . وفيها من الحصون والبروج والقرى مالا يحصى كثرة، حتى قيل : إن عدد القرى على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا بالأندلس" (١)

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٠

شيء من التاريخ :

لايكاد تاريخ الأندلس ينفصل عن تاريخ المغرب - بالمعنى العام للكلمة - ونحن نعتبر أن المغرب مايلي مصر من ناحية الغرب، وإن كانت هذه مسألة اختلف حولها المؤرخون والجغرافيون فعلى زمن العباسيين كانت مصر اقليما "مغربيا"، ووفقا لهذا الفهم تكلم عنها ابن سعيد ضمن كتابه "المغرب فى حلى المغرب" ولكن معظم المؤرخين يقسمون المغرب إلى :

أ - المغرب الأدنى : وسمى أيضا افريقية - وعاصمته القيروان على زمن الأغالبة ثم المهديّة على زمن الفاطميين ثم تونس اعتبارا من دولة الحفصيين ، ويشمل مايعرف الآن بتونس والأطراف الشرقية من الجزائر .

ب - المغرب الأوسط : ويشمل مايعرف الآن بالجزائر واختلفت العاصمة فيه بحسب توالى الدول فيه، ففي زمن الدولة الرستمية الإباضية الخارجية كانت عاصمته تاهرت (تياريت الآن بولاية وهران) اما على زمن دولة بنى زيرى - من صنهاجة - فكانت العاصمة مدينة أشير (مكانها بنية قرب مدينة الجزائر الآن) وصارت - في زمن بنى عبه الواد - فى تلمسان ثم تحولت العاصمة إلى الجزائر - المغرب الأقصى : ولا يفصله عن المغرب الأوسط الا نهر مولويه وكثيراً ماكان يشكل مع المغرب الأوسط وحدة سياسية وكانت عاصمته اما فاس (على زمن الأدارسة) أو مراكش (على زمن المرابطين ثم الموحدين) أما فى زمن بنى مرين (ومن بعدهم بنى وطاس) فإن مدينه فاس أصبحت العاصمة مرة أخرى فلما تولى السعديون الملك جعلوا عاصمتهم مراكش أما فى العصر الحديث فإن دولة المغرب اتخذت من مدينه الرباط عاصمة لها، وهى مدينة قديمة، بنيت فى عهد الخليفة الموحدى يعقوب (المنصور).

وقد كان اتجاه المسلمين لفتح المغرب بعد فتح مصر مسألة منطقية من كافة الوجوه ، وهكذا غزا عمرو بن العاص منطقة برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ،

وفى سنة ٢٧هـ سارت حملة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح، والى مصر (وشقيق سيدنا عثمان بن عفان فى الرضاعة، ومعه عبدالله بن الزبير حتى وصلت إلى افريقيه وانتصرت على البيزنطيين عند موضع يسمى سبيطله ثم انتصر عبدالله بن سعد على أساطيل بيزنطة فى معركة ذات الصوارى سنة ٣٥هـ وتجددت محاولات فتح افريقية فى زمن معاوية الذى سير فى سنة ٤٥ حملة بقيادة معاوية بن حديج الكندى ثم كانت فترة الولاية الأولى لعقبة بن نافع . من سنة ٥٠ الى ٥٥) فكانت بداية لمرحلة زاهرة من الفتوح والعمران . إذ شيد مدينة القيروان وتولى بعده سياسى محنك هو أهر المهاجر دينار (٥٥ -٦٢) الذى استطاع أن يستميل البربر الى صفوف العرب ويجعلهم يعتنقون الإسلام، ونتيجة لهذه الخطوة تمكن المسلمون من مد نفوذهم على المغرب الأوسط كله حتى تلمسان .

وقد مر فتح المغرب بين مد وجزر إلى أن تولى أمر المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ فى زمن الوليد بن عبدالملك - وفى عهده كانت أركان الدولة الاسلامية قد استقرت هناك، فقد انتشر الإسلام بين البربر وتكونت منهم فرق مقاتلة الى جانب العرب وهذا التحول الفريد الذى طرأ على بلاد المغرب كانت له آثار ايجابية فى فتح الأندلس بعد ذلك، لأن معظم قبائل البربر أخذت بعد اعتناقها الإسلام تتوق إلى الحرب والجهاد، ونفسية البربر المغربية مثل نفسية العرب قلقة دائما، وتريد الحركة والكفاح ولاشك أن القائد العربى موسى بن نصير كان على علم تام بنفسية البربر وطبيعتهم فرأى أنهم إذا تركهم صارت الحياة الاسلامية تافهة بالنسبة لنفوسهم المتعطشة للحروب ولهذا حرصت على اتباع نزعة البرر نحو الحرب وكسب الغنائم بدفعهم الى الحرب وتوجيههم الى الفتوحات الخارجية - (١)

(١) د. أحمد مختار العبادى: لى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٠ .

فتح الأندلس :

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للهيمنة الرومانية قرابة ستة قرون، إذ حكموها منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الخامس الميلادي، وأخضعوا في خلال هذه المدة الإمارات والمستعمرات المختلفة التي كانت قد استقرت فيها أو في شمال المغرب ، وبخاصة الفينقيين الذين كانوا قد استقروا بالشواطئ الساحلية جنوب وشرق الأندلس حيث أسسوا مدنا منها مالقة وقادس كما أسسوا في الساحل الافريقي عدة مراكز أهمها مدينة قرطاجنة .

وقد نشر الرومان لغتهم كما نشروا الكاثوليكية بين السكان، وغرسوا حضارتهم إبان هذه المدة الطويلة، إلا أن اركان هذه الامبراطورية الضخمة مالبتت أن أخذت في التهاوى، مما مكن القبائل الشمالية الجرمانية من الانحدار من بلادهم جنوبا - حيث الدفاء والرشاء - ومن هذه القبائل الوندال الذين استقروا في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك القوط Visigodes الذين تمكنوا من طرد الوندال - مما دفع بهؤلاء للعبور الى الشاطئ الافريقي، إلى أن تم التحالف، بين هذه القبائل المتناحرة، تحت زعامة ملوك القوط، وأخروهم رودريجو Rodrigo (الذي يعرف في المصادر العربية باسم لذريق) وكانت أحوال البلاد في عهده قد ساءت الى أبعد حد وعمت الاضطرابات والفتن ، وفي عهده بدأ الفتح الإسلامي .

وعلى الرغم من أن هناك حقائق بارزة في الفتح العربي للأندلس، إلا أن المسألة لم تخل من بعض الأساطير ، من أشهرها ما تردد في بعض المصادر العبرية من أن الأمير يوليان - حاكم سبته - هو الذي أغرى العرب بفتح الأندلس انتقاما من ملكها لاعتدائه على ابنته . (فلورندا، التي تنعت في المصادر الشعبية الإسبانية بنعت قبيح، إذ تسميها La Cava، أي الفاجرة)

لكن المؤرخين المحدثين يردون الأمور الى مسارها الصحيح على اعتبار أن هذا الفتح كانت تحتمه الأوضاع السياسية والعسكرية ، فضلا عن الاعتبارات الدينية القوية :

وبعد بعض المحاولات الاستطلاعية . مثل حملة طريف سن ٩١ التي تكللت بالنجاح اجابت الخطوة الكبرى بتلك الحملة التي قادها طارق بن زياد - ومعظم المصادر ترجح أنه ضابط بربرى من قبيلة نفزة ، ومنها كذلك كان معظم الجند الذين بلغ عددهم سبعة آلاف مقاتل، وكان ذلك سنة ٩٢هـ، وتقول بعض الروايات إن طارقا بعد أن خرج من "العدوة" أحرق سفينه وخطب فى جنوده خطبة بليغة قوامها أن :قاتلوا أو موتوا، ولو صح ذلك الخبر لكانت "أول نص أدبى عربى؛ قيل على أرض الأندلس، لكن الدارسين المعاصرين يرفضون كل ما قيل فى هذا الصدد، ويردونه الى الخيال الشعبى الذى يسعى الى تجميل مثل هذه المواقف وإضفاء الطابع الأسطورى أو الخرافى عليها .

والنص المتداول من الخطبة يقول :

أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصون من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خلال هذه العاقبة من زمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة - أرخص متاع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا. استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم

ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسن ، من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً. ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظ منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون" (١)

والمسألة لم تقف عن هذا الحد بل تعدتها إلى الشعر فقد نسبوا له هذه الأبيات :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا
عسى أن يكون الله مناقد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجينة
إذا ما اشتهينا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرنا

(١) نوح الطيب ج ١ ص ٢٤١ (ط. احسان عباس) ولا تختلف كثيراً عما ورد فى الرقيات (ترجمة موسى بن نصير) ج ٥ ص ٣٢٢ فى حين ترد فى الامامة والسياسة المنسوب لابن لثبة بصوره مغايرة مختصرة .

وليس هذا بغريب فقد نسبوا من قبل شعرا لقبايل وهايبيل ولأبناء نوح ولقوم عاد وثمود ...

وبعيداً عن تفصيلات وقائع الفتوحات نكتفى بالإشارة إلى النصر الحاسم الذي أحرزته جيوش طارق بن زياد عند شذونه Sidona (قرب وادي البرباط) بجيش قوامه اثنا عشر ألفاً (بعد أن أمده موسى نصير بمدد قوامه خمسة آلاف جندي) في مواجهة جيش ضخيم يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل، وبما ضاعف من أهمية هذا النصر أن لذريق نفسه قتل في المعركة، ولم يعثر له على أثر، ولم تليث الأندلس أن استسلمت للفتح العربي في غضون ثلاثة أعوام .

وبما ساعد على سرعة تحقيق هذا الفتح أن موسى بن نصير خرج سنة ٩٣ بجيش عربي قوامه ثمانية عشر ألف جندي ، أستولى على مدن قرمونة واشبيلية ووشقة و لاردة ثم تقابل مع جيوش طارق بن زياد على ضفاف نهر التاجو حيث كان القائد البربري يحاصر طليطله عاصمة القوط التي سقطت في النهاية، وربما جاز أن نتخيل أن القائدين كان من الممكن أن يتما فتح شبه الجزيرة كلها بعد ذلك لولا أن جاءت اليهما أوامر الخليفة تأمرهما بالتوجه الى دمشق، وكان قد هجم عدد ضئيل من الجيش القوطي - بقيادة بلايو- في الفرار الى الجبال الشمالية الغربية ومن هناك كونوا نواة للمقاومة أو لحركة الاسترداد Reconquista وتأسست على أيديهم مملكة ليون أما القلاع التي كانت تحيط به المملكة فإنها لاتلبث ان تكون بدورها إمارة صلية عرفت باسم كاستيا Castilla وهي التي تسميها المصادر العربية بامارة قشتاله وسيكون لها شأن كبير بعد ذلك في مجريات الاحداث وقد اصطلح الدارسون علي تقسيم عصور الأندلس تاريخيه وأدبه - وفقاً لأقسام هي :

أ - مرحلة عصر الولاة :

وتبدأ من الفتح حتى استيلاء الأمير الاموى عبد الرحمن الداخل على مقاليد الامور في قرطبة (سنة ١٢٨هـ - ٧٥٥ م)

وقى خلال هذه المدة كانت الاندلس مجرد ولاية تابعة للدولة الأموية بالشرق ، وقد عرفنا كيف أن موسى بن نصير وطارق بن زياد انجها إلى دمشق بأمر من الخليفة الأموى وعين عبد العزيز بن موسى بن نصير واليا على الأندلس ، وبدأت معه مرحلة جديدة من الفتوح لكنها اجهضت بمقتله سنة ٩٧هـ ، وتوالى محاولات الفتح من بعده خاصة فى عهد عبد الرحمن الغافقى الذى وصلت غزواته الى اقليم اكيثانيا - في الجنوب الغربى من فرنسا واستولى على مدينة بورجو لكن جيوشه لقيت هزيمة مياغته عند مدينتى تور ويواتيه (سنة ١١٤هـ/٧٣٢م) - وتعرف هذه المعركة فى الكتب العربية باسم بلاط الشهداء .

وقد اوقفت هذه الهزيمة المد العرسى ، كما جاءت عوامل أخرى داخلية فزعزعت الكيان هناك ذلك أن الفتن الداخلية اشتعلت بين المسلمين بسبب عوامل الفساد والاستبداد وضيق الأفق ، وقد شعر الأيبيريون الذين اعتنقوا الإسلام بالغبن لأنهم طولبوا بأداء الجزية على الرغم من إسلامهم وكذلك البربر الذين شعروا بأن العرب يتعالون عليهم ويعاملوهم معاملة الأسياد للعبيد ومن ثم اشتعلت الفتنة البربرية فى المغرب والأندلس حتى إذا ماتم القضاء على هذه الفتنة ثارت القلاقل بين العرب الحجازيين (البلديين) وعرب الشام

عصر الامارة الأموية (١٢٨-٣١٦)

ويبدأ هذا العصر مع استيلاء عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور سنة ١٢٨هـ ويستمر حتى سنة ٣١٦هـ .

ففى سنة ١٣٨ أي بعد فترة وجيزة من سقوط الدولة الأموية فى المشرق نجح هذا الأمير الأموى فى الفرار الى الغرب، ودخل الأندلس فالتف حوله أنصار بنى أمير ونجح فى الاستيلاء على قرطبة ومضى يوطد أركان ملكه على مدى أكثر من ثلاثين سنة ، ومن ثم لقب بـ "صقر قریش" لأنه "عبد البحر وقطع القفر وجند الاجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وقوة شكيمته" كما قال عنه أبو جعفر المنصور بحسب ما نقل ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام .

وينض النظر عن الكفاءة السياسية والحربية للداخل، فإن التاريخ يسجل له الاعتناء بالجوانب الحضارية فقد اهتم بتجميل قرطبة وبنى فى شمالها الغربى قصرا سماه الرصافة - على غرار قصر جده هشام بن عبد الملك فى بادية الشام وحدد مسجدها الجامع ، فضلا عن أنه كان أديبا شاعرا ، على ماسنرى .

وقد توالى على عرش قرطبة عدد من الأمراء من نسل الداخل أولهم ابنه هشام الرضا (سنه ١٧٢ ثم الأمير الحكيم (١٨٠) ثم عبد الرحمن الثانى (الأوسط) سنه ٢٠٦ وفى عهده بلغ الترف فى قرطبة درجة عالية من الرقى ، وأصبحت تنافس بغداد فى هذا المضمار خاصة بعد أن انتقل اليها زرياب الموسيقى (ولانتزال آثار موسيقاه ماثلة فى ألحان أهل المغرب حتى اليوم) وكان زرياب شخصية اجتماعية ، وأحد أساطين فن الذوق والسلوك (الاتيكييت) فعلم الأندلسيين طريقة الترتيب فى تقديم الأطعمة وابتكر فى الأزياء والألوان، وقد نفس بعض أهل الأندلس على زرياب هذه المكانة التى احتلها ومن هؤلاء الشاعر يحيى بن الحكيم الغزالى وقد مرت الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الثانى بفترة اد لمرايات وتكونت دويلات كثيرة هنا وهناك وظهر عدد من الثوار أهمهم عمر ابن حفصون ولكن قبض الله للإسلام هنا اميرا بطلا هو عبد الرحمن الثالث (الناصر) والذى حكم البلاد خمسين عاما (من ٣٠٠ الى ٣٥٠) بلغت فيها درجه رفيعة من الاستقرار والرخاء وعلو الشأن فى ميادين العلم والثقافة كافة.

وفى سنة ٣١٦ تسمى عبد الرحمن الناصر بالخليفة واستمر ذلك من بعده الى سقوط البيت الأموي فى الأندلس كما أنشأ مدينة الزهراء - شمال قرطبة - وقد تولى من بعده الحكم الثانى (المنتصر بالله) وكان ملكا حكيما محبا للكتب وفى عهده وفد أبو على القالى على الأندلس فكان من عوامل نشاط الحياة الثقافية فى الأندلس ، والحكم هذا آخر الملوك الأمويين الأقوياء إذ تولى من بعده ابنه هشام الثانى (المؤيد بالله) وكان صغيرا غرا مما حدا بالحاجب أبى منصور العامرى لأن يستبد بالأمر ويتولى بحنكة إدارة سفينة الأندلس التى كانت الأخطار تهدق بها من كل جانب الى أن توفى (سنة ٣٩٢) ثم كان ماكان من أمر ابنه عبد الرحمن (شنتجول) الذى طمع فى الخلافة فكان فى ذلك نهايته ونهاية البيت الأموى معا .

دول ملوك الطوائف :

تفرقت الكلمة بعد ذلك فى الأندلس وأصبح لكل مدينة أو اقليم حاكمه المستبد بالأمر فيه، ومن أبرز هؤلاء الملوك :

- بنو عباد، وحاضرتهم اشبيلية ، ودام ملكهم : سبعين سنة، وامتد نفوذهم الى قرطبة وغيرها.

- بنو جهور ، وكانت عاصمتهم قرطبة ، وحكموا ذاه أربعين سنة، إلى أن استولى بنو عباد على دولتهم

- بنو حمود وعاصمتهم مالقة

- بنو الأقطس ، وحاضرتهم بطليوس ، وحكموا : سنة

- بنو ذى النون ، وعاصمتهم البيطلة، وحكموا : سنة

- بنو عامر وحاضرتهم بلنسية، وحكموا نحو سنة

بنو هود، وحاضرتهم قسطة، وحكموا سبعين سنة.

بنو صمادح، وعاصمتهم المرية، وحكموا نحو نصف قرن .

وهناك ، فضلا عما ذكرنا ، دويلات أخرى كثيرة مثل دولة بنى القاسم فى الفنت ، ودولة بنى رزين فى شنتمرية الشرق (أو شنتمرية ابن رزين) وإمارة سعيد بن هارون وابنه محمد على شنتمرية الغرب، وإمارة بنى مزين فى شلب، وبنى يحيى فى لبله وبنى بكر فى ولبه وبنى برزال فى قرمونة

وعلى الرغم من هذا التمزق السياسى الخطير ، الذى كان يؤذن بأسوأ العواقب إلا أن الحياة الثقافية شهدت فى ظل هذه الانقسامات انتعاشا ضخما مداه المنافسة بين هؤلاء الأمراء والتهافت على الشهرة وحب الاستماع الى مدائح الشعراء فيهم ، فهو انتعاش عارض لم يستند الى دوافع دينية او قومية أو فكرية حقيقية وقد أحسن ابن رشيق عندما قال فى وصفهم :

مما يزهدى فى أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاضا صولة الأسد

دولة المرابطين (أو الملثمين) :

لدولة المرابطين تاريخ طويل بالغ التعقيد والغموض، إذ يبدأ فى تلك المناطق الإفريقية المجهولة الشاسعة فى الشمال الغربى من افريقية، فيما يعرف اليوم بصحراء شنقيط (بموريتانيا) ووسط قبائل البربر المعروفين باسم صنهاجة ومن اهم فروعها لتونة ومسوفة وجد اله وكان هؤلاء يتلثمون وبذلك اختلفوا عن الصنهاجيين الشماليين مثل بنى زبرى الذين حكموا المغرب الأدنى والأوسط وغرناطة فى فترة من الزمن

وقد انتشر الإسلام بينهم مبكراً، ولكنه لم يقو إلا في غضون القرن الخامس بفضل زعيمهم يحيى الجدالي والفقيه عبدالله بن باسين الجزولي، إذ توطدت على أيديهما دعائم المذهب المالكي أو استقام له مفهوم ديني سلفي متين، ومن ثم فإن اسم "المرابطين الذي أطلقوه على أنفسهم كان اسماً على مسمى. وعلى رأسهم لتونة - للشمال، أي لتلك الاضلاع التي كان يسيطر عليها آنذاك قبائل غمارة في الشمال وقبائل برغواطية في الغرب وإلى جوار هؤلاء كانت تقيم كذلك قبائل زنانة وبعض الرافضة ومن إليهم، ولجح المرابطون في فرض هيمنتهم هناك واتخذوا من اغمات عاصمة لهم ثم شرعوا في بناء مدينة مراكش التي سوف تصبح العاصمة بعد ذلك ويأتي التحول حين تزول زعامة المرابطين للأمير يوسف بن تاشفين الذي تسمى بأمر المسلمين فقد برزت أهمية هذه الدولة الجديدة في مقابل ما كان عليه مسلمو الأندلس من هوان وتفكك، ثم جاءت استعانة المعتمدين عياد به ليدراً عنه خطر الفونسو السادس وفي سنة ٤٧٩ عبر يوسف بن تاشفين وجيوشه مضيق جبل طارق ليتقابل مع جيوش المعتمد بن عباد ومن أزروه من ملوك الطوائف ولتكون معركة الزلاقة حيث انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ورجعت جيوش المرابطين إلى مراكش لتكون لتعود مرة أخرى على الأندلس بعد ذلك بأربعة أعوام وقد عزم ابن تاشفين هذه المرة على تخليص البلاد من حكم ملوك الطوائف وتوحيد المغرب والأندلس تحت إمرته

ولم تستمر فترة الزهو طويلاً بالنسبة للمرابطين فبعد موت يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠) تولى الملك ابنه علي، وكان حاكماً ورعاً قليل الخبرة بالسياسة وشؤون الحكم، ومن ثم بدأ الاضطراب يتسلل إلى الدولة، ووقعت حوادث شديدة الخطر لم يتنبه إلى نتائجها، فمن ذلك ظهور دعوة ابن تومرت وكثرة أشياعه، وقد سكت عنه علم بن يوسف طويلاً، ولم تحرك ساكناً إلا بعد قوات الأوان وقد خضع المرابطون لسيطرة الفقهاء، ورد ثروات الأندلس

الهائله أمراء المرابطين بالدعة وحياء الملذات والخمول ، ففقدوا مسوغات بقائهم على رأس السلطة، ولم تدم دولتهم إلا زهاء ستين سنة.

وقد تم إسقاط المرابطين، من الناحية العملية نحو سنة . ٥٤ ، ففي هذا التاريخ أعلن أهل اشبيلية مبايعتهم لتلك الدولة الجديدة التي ظهرت بالمغرب والتي تسمت باسم الدعوة الموحدية ، وهكذا انطوت صفحة تلك الدولة التي شاخت قبل الأوان بعد أن أحرزت انتصارات باهرة ونحت في إلحاق الهزيمة بألفونسو السادس واستطاعت أن تسترد بلنسية سنة ٤٩٥ من يدى السيد القمبيطور (رودريكو دياز) وأضاعتها أبدى الاهمال بسوء التدبير

دولة الموحدين :

ولدولة الموحدين بداية غامضة شيئا ما، ولكن خطورتها العامة معروفة على كل حال، وربما تمثلت هذه البداية بصورة أساسية فيما تسلسل الى كيان المرابطين من وهن وفساد، وما كان يعج به المغرب والأندلس من اضطرابات وفقن وتيارات فكرية واجتماعية وعسكرية وروحية متصارعة متلاطمة .

على أن التصدع الفعلى فى كيان المرابطين يظهر على نحو واضح سنة ٥١٤ هـ اذ تتردد فى مراكش أصداء دعوة محمد بن تومرت مناديا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مظهرا الغلو فى تطبيق تعاليم الدين، ناشرا دعوته بين القبائل، متلقيا بالمهدى المنتظر" وبـ "الامام المعصوم" واذا بالجموع تلبى نداءه ويصطنع من بينهم عددا من "الحزاريين" على رأسهم عبد المؤمن بن على الذين يتولى زمام قيادة "الموحدين" على أثر وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ

وعبد المؤمن بن على بربرى من كومية - بطن من زناتة- اتسم بالعقربة العسكرية والدهاء السياسى، واستطاع بعد معارك طاحنة أن يستولى على مراكش - حاضرة المرابطين فى المغرب - سنة ٥٤١ ، ويؤسس دولة وطيدة الأركان انتقل بها من نصر إلى نصر إلى أن توفى سنة ٥٥٨

وكان من البديهى للدولة الموحدية، بعد أن تمكنت من سحق المرابطين فى المغرب، أن تتجه إلى استئصالهم فى الأندلس، وكان أمرها موزعا بين هذه الزعامات الإسلامية وبين أطماع ملوك الفرنجة الذين أضرموا حروب الاسترداد، وساعدهم عليها مااعتري أهل الأندلس من خلل وثورات وأطماع ونزوات أدت إلى سقوط طليطلة مبكرا (سنة ٤٧٨) - على زمن ملوك الطوائف ولولا أن تدارك الله الإسلام آنذاك بالانتصار فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ لكان انهيار الأندلس قد وقع بأسرع مما كان .. ثم توالى سقوط المدن فاستسلمت تطيلة سنة ٥١١ هـ ثم سرقسطة سنة ٥١٢ وتمكن ألفونسو المحارب من الاستيلاء على

العديد من الحصون والمواقع المنيعه مما أدى إلى استسلام مكناسة - سنة ٥٢٧هـ - ثم طرطوشة ولاردة وإفراغة من قواعد الثغر الأندلسى الأعلى ، وفى ظل هذه الحالة برزت قوة الموحدين .

وأول جيش موحدى دخل الأندلس نحو سنة . ٥٥٤هـ ، واستطاع هذا الجيش أن يخضع اشبيلية سنة ٥٤١هـ ، وتوالت استجابة العديد من المدن الأخرى لحركة الموحدين ، بما فى ذلك قرطبة التى اضطر أميرها المرابطى يحيى بن غانية الى التخلّى عنها للموحدين بعد أن اشتدت عليه مطالب ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وتمكن الجيش الموحدى من انتزاع مدينة المرية من أيدي الفرنجة بعد أن بقيت فى حوزتهم زهاء عشرة أعوام ، وانضوت غرناطة اخر الأمر للملك عبد المؤمن الموحدى .

أما مااستعصى عليه فيتمثل اساسا فى مرسية التى كانت خاضعة لأبى عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الملقب بـ " صاحب شرق الأندلس " (١) .

ولسنا بصدد تناول تاريخ أمراء بنى عبد المؤمن ، ولكن من الضرورى التعرّيج على اسمين هامين أولهما يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب .

أما الأول فكان فقيها حافظا متقنا ، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ، فنشؤوا فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قرامة العلم بين أفاضل العلماء ، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى

(١) تملك ابن مردنيش شرق الأندلس (مرسية وبلنسية) سنة ٥٤٢ هـ ، وحمل الدعوة لفكرة استقلال الأندلس عن المغرب ، ومن ثم تصدى لمحاولات الموحدين الرامية لضم شرق الأندلس : سيراطوريتهم ، واخذ عليه تحالفه مع القشتاليين ، وكان من مؤرّيه ابن همشك الذى تغلب على شقورة ، واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على استقلاله حتى وفاته سنة ٥٦٧ فخضعت مرسية لسيطرة الموحدين ، وسوف نعود للتعريف بهابن مردنيش فى موضعه .

الأدب وبقية العلوم^(١) ، وبما يؤثر له أنه أعد العدة للجهاد الفرنجة في الأندلس عندما عبر إليها سنة ٥٦٦ هـ بجيوش جرارة أقضت الي استيلائه على مرسية وماجاورها ، وكان ذلك على أثر وفاة ابن مردنيش (سنة ٥٦٧ هـ) .

وكان آخر ما قام به يوسف بن عبدالمؤمن أن تحرك من المغرب الي الأندلس على رأس جيش جرار ليحرر مدينة شنترين من قبضة البرتغال (وملكهم انذاك ألفونسو هينريكيث الذي تسميه الروايات العربية ابن النفق وابن الرنك) ، ولكن هذه الحملة باءت بالخسران ، وقتل الخليفة في أعقابها ، سنة ٥٥٨ هـ .

وهكذا يقضى بنا القول الي الشخصية التالية أي الي أبي يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمنصور ويوصف بأنه الفارس الذي أظهر أبهة ملكهم ، ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه ، وعظمت الفتوحات " (٢)

وكان من أعظم مآثر المنصور انتصاره الساحق على نصاري اسبانيا في معركة الأرك في سنة ٥٩١ حيث تقدر بعض المصادر - مثل الكامل لابن الأثير - أن قتلهم تجاوزت مائة ألف قتيل .

وقد توفي المنصور (سنة ٥٩٥) وتولي الحكم من بعده ابنه محمد الناصر لدين الله ، وكانت فيه سمات من نخوة أبيه لكنه لم يكن شله في الحزم وإدارة الجيوش وقد منى جيشه الضخم في سنة ٦٠٩ هـ بهزيمة شعاء في معركة تعرف

(١) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٢-١٩

وللمزيد من التفاصيل يراجع محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين . وحدين في المغرب والأندلس ، القسم الثاني ومراجعه ..

باسم معركة العقاب - . بالكسر - وبهذه الهزيمة تقهقر الإسلام فى الأندلس بصورة مروعة، وعلى الرغم من أن دولة الموحدين استمرت بعد ذلك لفترة من الزمن - حتى نحو سنة ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٩ م ، إلا أن معركة العقاب كانت بمثابة النهاية الفعلية لدولة الموحدين ، بل وللعرب والمسلمين فى سائر الأندلس ، ماعدا منطقة غرناطة وما حولها فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد عبر أحد شعراء ذلك العصر - ابن الدباغ الاشبيلي - على معركة العقاب بقوله :

وقائلة أراك تطيل فكرا :

كأنك قد وقفت على الحساب .

فقلت لها أفكر فى عقاب

غدا سببا لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مقام

وقد دخل البلا من كل باب (١)

مملكة غرناطة :

وتسمى أحيانا بـ "دولة بنى الأحمر" و "بالدولة النصرية" و أيضا بـ "الأندلس الصغرى" ، وتمثل اخر المعازل فى اسبانيا.

وكانت الأندلس خلال فترة الانهيار الموحدى قد شهدت عدد من الشخصيات المكافحة على الرغم من كل الظروف العسيرة التى أحاطت بهم انذاك ، ومن هؤلاء الأمير الفارس أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود - من نسل بنى هود أصحاب سرقسطة - وبدأ حركته سنة ٦٢٥ فى مرسية ، مستغلا فترة

(١) نفع الطيب ٤٦٤/٤

انهيار البيت الموحدى ونادى بتخليص الأندلس من كل من النصارى والموحدين
معا وبث الدعوة للعباسيين بما دعا الخليفة العباسى الى تشييع المراسيم له،
وتلقب بـ "المتوكل على الله:

وسرعان ما استطاع أن يبسط نفوذه على جيان وقرطبة وماردة وبظليوس،
كما انتزع غرناطة من قبضة الموحدين فى سنة ٦٢٨ هـ ، وعنه يقول لسان الدين
بن الخطيب انه كان "شجاعا كريما حيباً وفياء، متوكلا عليه ، سليم الصدر ،
قليل الميلالة بالأمر ، محدودا ، لم ينصر به جيش ، ولا وفق له رأى ، لغلبة
الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه الى لقاء الأعداء من غير كمال
استعداد^(١) والحق أن عوامل كثيرة أسهمت فى زعزعة ملك ابن هود، أهمها
فورة الحماس التى سرت فى نفوس نصارى الأندلس ، ومن ثم سقطت قرطبة -
التى كانت لفترة طويلة من الزمان حاضرة الخلافة، وقد انتهت حياة ابن هود
فجأة، وهو فى ثغر المرية، سنة ٦٣٥ .

وتعرضت بلنسية بدورها للمصير التعس، عندما تحالف أميرها الموحدى
(السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن) مع ملك
أراجون خامى الأول - بعد أن نجح أبو جميل زيان بن مردنيش فى انتزاع
المدينة منه - ولم يلبث السيد ابو زيد ان تنصر وأصبح من قواد النصارى
وأزرقهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على بلنسية، ثم توالى سقوط المدائن
الكبرى: مرسية (٦٣٦) واشبيلية (٦٤٥) وغيرهما، ووضح ان النهاية الدامية
باتت على وشك ان تخيم على سائر الأندلس .

وفى هذه الآونة العاصفة استطاع أحد القادة العرب : محمد بن يوسف
الملقب بابن الأحمر، سليل بنى نصر أصحاب حصن أرجونه، من بسط هيمنته

(١) أعمال الأعلام ٢/٢٧٨ . والإحاطة ٢/١٢٩

١١١ نفع الطيب ج ١ ص ٢١

على عدد من المواقع والحصون الى أن استولى على غرناطة سنة ٦٣٥ وفى ظل هذه الظروف "كانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تفيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، وكان فرناندو الثالث ملك قشتاله يرى فى ابن الأحمر، بعد اختفاء ابن هود، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه. وكان ابن الاحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزمها واقداما لمحاربة النصارى واستخلاص تراب الوطن من أيديهم^(١) ومع ذلك فإنه اضطر الى دفع الجزية لملك قشتاله وسلم له جيان وأرجونة وبركونة وغيرها، فى مقابل توقيع معاهدة سلام بينهما ثم عاد فى سنة ٦٦٥ فتنازل عن قرابة مائة موضع وحصن مما كان فى حوزته ، خاصة فى غرب البلاد ، وخلقت هذه الأحداث جراحا غائرة فى نفوس الناس، وعلى اثرها كتب أبو البقاء الرندى مرثيته المشهورة :

لكل شئ إذا ماتم نقصان

فلا يغر بطيب العيش انسان

وتوفى محمد بن الأحمر سنة ٦٧١هـ، بعد أن ابتنى قصر الحمراء ، وبعد أن استطاع دفع ملوك بنى مرين بالمغرب لأن يعينوا الأندلس، وتكونت تبعا لذلك "مشيخة الغزاة" وتبعا لذلك تمكنت مملكة غرناطة من مجادلة أعدائها فترة طويلة من الزمن ، الى أن آذنت شمسها بالغروب وكان النصارى قد وحدوا صفوفهم ، بقيادة ايسابيللا ملكة قشتاله وفرناندو الخامس ملك أراجون ، وشددوا الحصار على غرناطة إلى أن اجبروا ملكها أبا عبد الله محمداً الذى تسميه المراجع الأوربية Boabdil أو أبا عبدالله الصغير على توقيع معاهدة استسلام غرناطة، وذلك فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢م)، وبذا انطوت اخر الأعلام الإسلامية عن أرض شبه الجزيرة الأيبيرية .

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص ٤٢

ما بعد الرحيل:

هناك مرحلة كثيرا ماتنسى من عمر الأندلس، وإذا ما ذكرت في كتب التاريخ فإنها عادة ماتهمل في كتب الأدب ونعنى بها المرحلة "الموريسكية"، التى تتناول فترة ما بعد الأندحار، أى المرحلة التى تبدأ بسقوط غرناطة وماتلاها من أحداث جسام، وقد تناولتها - تاريخيا - بعض الكتب العربية، من بينها كتاب محمد عبدالله عنان الضخم: "نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين"، وكتاب عادل سعيد بشتاوى "الأندلسيون المواركة"، فضلا عن الترجمة العربية لكتاب : هورتز وب. بنثنت: تاريخ مسلمى الأندلس : الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية" الخ ... وأما الأدب فلا نكاد نجد له ذكرا إلا عند د. عبد العزيز الأهوانى فى : الزجل فى الأندلس والذين يعرضون لأحوال المسلمين "المدجنين" Las Mudejares و (المدخاروس) لابد وأنهم يتذكرون الفتح العربى لاسبانيا وماكان يلاقيه المستعربون Los Mozarabs من حسن معاملة وجميل رعاية، وماآل إليه أمر مسلمى الأندلس من مهانة وتشريد واجبار على التنصر ونقض للمواثيق.

ويتمثل نقض المواثيق بصورة أساسية من خلال معاهدة تسليم غرناطة والتى تضمنت سبعة وسبعين شرطا منها "تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهمهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم .. وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم.. ومن أراد الجواز للعدوة (للمغرب) لا يمنع.. وأن لا يؤخذ أحد بذنوب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين واخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الاسلام تمادى على ماأراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب..

ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود.. ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه "

لكن هذه الشروط تسخت شرطا بعد شرط وهكذا تم طرد المسلمين من غرناطة الى ماحولها، ثم بدأت عملية إجبارهم على التنصر وتمت اباده من لم يفعل - وكان ذلك سنة ٩٠٤ وفي ذلك يقول المقرئ: "وبالجمله فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحضرا، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك، امتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا .. ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلى، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك؛^(١) ثم حمل الموريسكيون بعد ذلك على مغادرة الأندلس - سنة ١٠١٧ هـ حيث نقلوا الى فاس وتلمسان وتونس وغيرها، وكانت أحكام القتل والإحراق تصدر جزافا على الأندلسيين ذوى الأصول العربية، وتم كذلك منع وإحراق الكتب العربية والتسنى بأسماء إسلامية الخ^(١) . ونتيجة لذلك أخذت الكتابة العربية تحتفى شيئا فشيئا وإن بقيت آثار منها تعكس اللوعة والإحساس الدامى بالقهر والضياع .

(١) نفع الطيب ج ٤ ص ٥٢٨

(١) راجع : تاريخ مسلمى الأندلس (الموريسكيون) ص ١٢٥ حيث يشير الى ما اكتشف من كتب إسلامية مخبوءة في ثقب الجدران في بعض المدن الاسبانية

ملاحظات حول الثقافة والمجتمع

كان التركيب السكاني في الأندلس خليطاً من أجناس شتى وحضارات متباينة شرقية وغربية، بحيث يمكن القول بأن الأندلس تمثل "حالة خاصة" في تاريخ البشرية .

فهناك السكان الأصليون الذين ينحدرون بدورهم من أصول مختلفة بعضها محلي قديم، وبعض آخر جاء إليها من روما أو من فينيقيا، وأيضاً من أقصى شمال المعمورة) مثل الوندال والقوط) ، على أن هؤلاء السكان يمكن أن يصنفوا بعد الفتح العربي إلى عدة فئات :

- المستعربة (Los Mozarabes) ، وهم الذين بقوا على ديانتهم الأصلية (النصرانية وفقاً للمذهب الكاثوليكي) ولكنهم اتصلوا بالثقافة العربية وحاولوا التجانس مع الحياة الجديدة التي أحاطت بهم، والكتب العربية تسميهم عادة : عجم الأندلس أو عجم الذمة، وقد ذكرهم ابن حوقل - الذي جاء وأفا على الأندلس في زمن الخليفة الناصر - في عبارته: "وبالأندلس غير ضيعة فيها ألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ، ولجأ بعضهم إلى حصن فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد"

- المولدون ، وهم نسل المسالمة ، وقد وصف ليفي بروفنسال هؤلاء المسلمين الجدد بقوله انهم زاولوا في القرى تربية المواشى والزراعة، وفي السواحل الصيد والصناعات البحرية بينما كانوا في المدن يقومون هم والموالي بالحرف والتجارة، وهذا كله يبين الدور القوي الذي قام به المولدون في حين ان الاقتصاد العام للبلاد، وهم يشكلون القسم الأكبر من سكان الأندلس . وقد برهن الأمويون على أفضل سياسة وأحكمها عندما ساعدوهم على الارتقاء وسمحوا

لكثير منهم بالاغتناء وبالتغلغل فى المجتمع الإسلامى. وكانت سياسة اللين لا سياسة القهر هى المتبعة فى نشر الإسلام، ومالبثت هذه السياسة أن اثمرت وأمدت النظام الأموى بجماعة كبيرة من ذوى القيم العليا الذين استطاعوا باستقامتهم - غير مرة - أن يفضوا الخلافات السياسية التى كانت تنشب بين العناصر المهاجرة من عرب وبرايرة ..^(١) وبقيت أسر من هؤلاء المولدين محافظة على أسمائها القديمة مثل بنى مرتين Martin وبنى مردنيش Martinez وبنى قومس Comes وبنى شيريق Savarico وبنى القبطرنة Kabturno وبنى اللونقة Longo وبنى قرلمان Karluman الخ .

- اليهود ، وكانوا على زمن القوط أقلية مضطهدة (ومن ثم آزرُوا الفتح الإسلامى للأندلس) ، واعتادوا أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم، واستطاع بعضهم - مثل ابن النفرلة- أن يحتل مناصب رفيعة فى الدولة ، وكان منهم شعراء وكتاب بالعربية .

- أهل البلاد المعاون للعرب

ونقصد بهم سكان البلاد التى لم يفتحها العرب حيث تكونت الإمارات التى قادت حركة "الاسترداد" - Reconquista - حتى تمكنوا فى النهاية من طرد المسلمين من سائر الأندلس

- العرب الفاتحون ومواليهم ، وقد أشرنا اليهم فى ايجاز عند الحديث عن الفتح عبر المرحلة الأموية من تاريخ الأندلس

ويمكن القول فى يسر إن المرحلة "العربية" كانت متأثرة الى حد بعيد بالطابع الشامى فى كل شئ ، وربما ساعد على ذلك أن قرطبة نفسها كانت تشبه

(١) بروفنسال: تاريخ اسبانيا الإسبانية (بالفرنسية) ، نقلا عن د. ألبر حبيب مطلق:
الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٢٨

مدينة دمشق من عدة وجوه إذ كانت تقع على الشاطئ الأيسر من نهر الوادي الكبير كما كانت حاضرة الأمويين تقع على الضفة اليسرى من نهر بردى، وكانت حاضرة الأندلس يحف بها جبل العروس بينما يحف بدمشق جبل مشابه هو قاسيون، وقد عرفنا أن جامع قرطبة شيد على نحو يشبه المسجد الأموي بدمشق "أما الناحية الدينية في الأندلس في هذه الفترة فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون في بادئ الأمر مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي امام الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ ، ومقامه يزداد في بيروت، وكان الأوزاعي من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت التي كانت في ذلك الوقت رباطا على العدو البيزنطي لذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم ، القائمة على الحرب والغزو".^(١)

ومن الطبيعي أن ذلك كله سينعكس بدوره على طبيعة الأدب والثقافة في الأندلس آنذاك

ويحتاج حزب "المولدين" الى وقفة خاصة ، لأنهم احتلوا في تاريخ الأندلس مكانة متميزة، وقد كان لهم فطهم الخاص في كل شئ ، فقد اعتاد معظم ارتداء الثياب البيض حزنا على الموتى، وفي ذلك يقول شاعرهم

ألا يا أهل أندلس فظنتم

بلطفكم الى أمر عجيب

لبستم في ماتمكم بياضا

فجنتم منه في زى غريب

صدقتم فالبياض لباس حزن

ولا حزن أشد من المشيب

(١) د. العبادى ، السابق ص ١١٤ .

وكان من عاداتهم فى الثياب ارتداء البرنس وهو عباءة ذات غطاء للرأس وتسمى أيضا بالغفارة ، بينما كان الخصيان يرتدون الخمار ، وتدل بعض الإشارات على أن الصقالبة - بما فى ذلك الأمراء منهم - كانوا يرتدون الأقراط ويضعون الخمار، وفى ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح واحد منهم :

فتصبح فيما بين قرطيك مطلع

وقد سكن الليل البهيم خماركا

وقد تخلى الأندلسيون عن العمامة فى الغالب الأعم، وإن ظل العلماء والقضاة يحرصون عليها وفى ذلك يقول المقرئ فضلا عن ابن سعيد: "وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمامة، لاسيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا اليه ألا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية ، حضرة السلطان فى ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة، وهو حاسر الرأس ، وشيبهه قد غلب على سواد شعره ، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه فى شرق منها أو فى غرب .. وكثيرا ما يتزى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم .." (١)

والظاهرة العامة أن البربر، على الأقل فى الأندلس ، لم يحظوا بالقدر الكافى من التقدير، واعتبروا ، أكثر من غيرهم، بمثابة الدخلاء على البلاد، وحقيقة اننا قد نصادف بعض أقوال فى مدحهم ، مثل البيت المعروف فى تعليل تمسكهم باللثام:

لما حروا إحراز كل فضيلة

غلب الحياء عليهم فتلثموا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٣ (ط. احسان عباس)

لكننا ، فى مقابل ذلك ، نجد مثل قول الشاعر السميسر:

رأيت آدم فى نومى فقلت له

أبا البرية، إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال : إذن

حواء طالقة ان كان مازعموا

والحكاية المشهورة تقول إن المعتمد بن عباد بعث ليوسف بن تاشفين على أثر عودته لبلاده بعد الانتصار فى معركة الزلاقة برسالة ضمنها قول ابن زيدون:

بنتم وينا فما ابتلت جوانحنا

شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فعدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

والخبر يقول ان ابن تاشفين قال لقارئ الرسالة معلقا على
البيتين :

"يطلب منا جوارى سودا وبيضا؟ قال : لا يامولانا. ما أراد إلا أن ليله
كان يقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا
لأن أيام الحزن ليال سود. فقال: والله جيد اكتب له : إن دموعنا تجرى عليه،
ورؤوسنا ترجعنا من بعده " ! ولا شك ان هذا محض لعم فهد كا، ابن تاشفين
حصيفا داهية، وهو الذى استشهد فى الرد على تهديد النوسو السادس بقول
المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل الا والخميس *

بل لقد تمكن الصقالبة من التأثير فى مجريات الأحداث، وهؤلاء الصقالبة (وبعض المؤرخين مثل دوزى يرجع التسمية إلى كلمة Slaves) كانوا من الرقيق المشتري من المناطق السلافية وكانت القبائل الجرمانية تغير على بلادهم وتبيعهم فى أسواق الرقيق، واشترى أمويو الأندلس أعدادا كبيرة منهم ودربوهم على فنون القتال (على نحو ما فعل الصالح أيوب فى مصر فى اقتنائه للماليك)

وبعد انهيار البيت الأموى ظهر من الصقالبة بعض الزعماء البارزين مثل أبى الجيش مجاهد العامرى الصقلى الذى شيد امارة فى دانية والجزر الشرقية

وهذا التركيب المتنوع المعقد سوف يخلف آثارا عميقة فى الأوضاع الاجتماعية فى نظام الحكم، إذ يلاحظ أن مفهوم "السيادة القرشية" لا يلبث أن يتزعزع بعد سقوط البيت الأموى ويصبح الملك أمرا مشاعا لا يخضع الا للغلبة أو الانتخاب ، وهذا ما آلت اليه الحال فى قرطبة سنة ٤٢٢ عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور " انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها" وأديرت قرطبة وفقا لنظام "جمهورى" واستطاع المولدون والبربر والصقالبة أن تكون لهم الكلمة النافذة فى بعض المناطق ، على نحو ما هو مبسوط فى كتب التاريخ .

وهناك وجهتا نظر بشأن طبيعة هؤلاء السكان، فبعض الدارسين وبخاصة العرب يؤمن بأنه يجب اعتبار سكان الأندلس عربا، على اعتبار أن العروية كانت العنصر المهيمن الغالب الذى احتوى كافة الأجناس الأخرى التى ارتبطت به، وهكذا كان الإسلام - دين العرب - هو الأساس ، ولغتهم هلى السائدة وطبائعهم هى المسيطرة .

أما المستشرقون الإسبان، وعلى رأسهم خوليان ريبيرا، فيرون أن أهل الأندلس هم اسبان دينهم الإسلام ولغتهم العربية، على أساس أن العرب قدموا

إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فرسانا ولم يكن معهم أسر ومن ثم فإنهم تزايدوا عن طريق الزواج بالأيبيريات وبذا فإن الدم الأيبيري كان يزيد جيلا بعد جيل بينما يتناقص الدم العربي مرة بعد أخرى .

ولعل الاستقراء الصحيح لواقع المجتمع الأندلسي يقود الى استخلاص رأى يجمع بين وجهتى النظر، فيبرز اثر العنصر العرب دون أن يقلل من أهمية الاجناس الأخرى، والأدلة التى تدفع للأخذ بهذا الرأى كثيرة للغاية

فلا شك أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة فضلا عن أنها كانت لغة الإبداع الأدبى - شعرا ونثرا - وامتد نفوذها الى المستعربين أنفسهم ولعل أوضح دليل على ذلك شكوى أحد كبار رجال الدين النصارى (الفارو القرطبنى) الذى ترك وثيقة يقول فيها :

"إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون عي دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوب عربيا جميلا صحيحا. ان الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب .

لقد نسى النصارى حتى لعنتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب الى صاحبه كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا "

على أن هذه الشكوى لاينبغى أن تستأثر بكل الانتباه ففى مقابلها ينبغى أن نلتفت الى ظاهرة انتشار اللاتينية المحلية (التي تعرف بالرومانث) حتى بين العرب أنفسهم وهاهو المقدسى صاحب :أحسن التقاسيم فى معرفة

الأقاليم" يذكر أن عددا من أهل الأندلس كان يتكلم فى موسم الجح بلهجة تستعصى على الفهم ولغة أخرى أعجمية. وابن حزم فى "جمهرة أنساب العرب" يقول إن جماعة من العرب، هم بنى بلى، كانوا "لا يحسنون الكلام بالطينية، لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم" وفى هذا التخصيص ما يدل على انتشار الرومانث بين سائر عرب الأندلس وخلف هذا التداخل بين الأجناس من عرب واسبان وبربر وصقالته أثره فى اللغة المتكلمة حتى إن ابن حزم يقول إن لهجة أهل فحص البلوط - على مقربة من قرطبة - تستعصى على الفهم فمن سمعها "كاد يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله"

وفى التاريخ الأندلس أن ابن حفصون - وهو من الثوار المولدين - كان يمزج كلامه بالألفاظ من الرومانث وكذلك كان يفعل ابن مردنيش أحد كبار ملوك شرقى الأندلس

وستأتى فى الموشحات والأزجال طائفة كبيرة من الألفاظ والجمل الرومانثية التى جرت على السنة الشعراء هناك

وقد استخلصت بعض الظواهر المكونة للشخصية الأندلسية التى نوجزها فى النقاط التالية :

القلق وعدم الاستقرار :

ان التاريخ الأندلس كله تاريخ مواقف متتابعة من القلاقل والاضطرابات ومحاولات الانفصال، وتعليهم لهذه الظاهرة التباين الواضح بين الاجناس التى تركب منها المجتمع الأندلسى، ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف شخصية قد عانت نوعا من القلق جعلها

تسعى الى ما يشعر بالزمن أو إلى ما يسكن على الاقل بعض هذا القلق، وربما كانت من أسباب مانعرف من ميل الأندلسيين إلى الوان من المتعة وصنوف من اللهو كالشراب والغناء والرقص الموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كلف به الأندلسيون!

الاحساس بالنقص بإزاء المشرق :

لقد حبا الله الأندلس بطبيعة لاتضاهى ، وبثروات لا تبارى، وتميز أهلوه بالذكاء والنظافة والظرف والاقبال على الحياة، ومع ذلك فإن الناظر فى أحوالهم يلحظ فى يسر أنهم كانوا يحسون إحساسا عميقا بالنقص بإزاء المشرق على الرغم من كثرة ما ألفوا من كتب ورسائل فى المباهاة ببلادهم (بل ان هذه المباهاة فى حد ذاتها يمكن أن تفسر على انها ثمرة احساس داخلى بالنقص)^(١) وقد كانوا يتظاهرون بالحرص على النواحي التقليدية ولكن هواهم كان على الدوام مع الجديد ، والميل الى التحرر من التقاليد . واليكم هذه الأبيات لابن حزم، وفيها ما يكشف عن بعض جوانب النفسية الأندلسية :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

(١) من ذلك رسالة ابن حزم ف فضائل أهل الأندلس ورسالة الشقندى (وتأتیان فى نفع الطيب) وهناك أيضا رسالة لصفوان صاحب زاد المسافر

فكم قائل أغفلته وهو حاضر
وأطلب ماعنه نجيبى به الكتب
هنالك يدري أن للبعد غصة
وأن كساد العلم آفته الغرب
فواعجبا ، من غاب عنهم تشوفوا
له ودنو المرء من دارهم ذنب

ومن البديهي ان يعول أهل الأندلس كثيرا على المشرق، على نحو
ما تكشف عنه بصورة خاصة كتب الفهارس - مثل "فهرست مارواه عن شيوخه
من الداووين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خير- الاشبيلي
وكتب البرامج ، مثل برنامج الوادى آشى الخ

وعدنا فهرست ابن خير بمادة غزيرة عن كتب اللغة والنحو بما شاع فى
عصره - القرن السادس الهجرى - فمن ذلك^(١) كتاب سيبويه والعين للخليل بن
أحمد. و"المقتضب" لأبى العباس المبرد و "الأصول فى النحو" لأبى بكر بن السراج
و"الجمل" للزجاجى و "الكافى" والمقنع " هما لأبى جعفر بن النحاس .

ومن الكتب المشرقية التى انتشرت بين الأندلسيين : البيان والتبيين
للجاحظ ، والفصوص لصاعد البغدادى (الذى هاجر للأندلس وأهدى كتابه هذا
للمنصور العامرى) وكتاب المجالس لثعلب (وانظر لابن عبدالبر: بهجة المجالس
وانس المجالس) وأدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الأمثال للأصمعى (ولابن
القوطية: شرح صدر أدب الكتاب) وشرح المعلقات لأبى جعفر بن النحاس وكتاها
اليتيمة وأجناس التجنيس للثعالبي (بإجازة من الحافظ السلفى)^(٢)، وكذلك

(١) فهرست ابن خير، ص ٣٠٥ وما بعدها

(٢) فهرست ابن خير ص ٣٧٠

"أشعار هذبل" برواية الأصمعي ومجموعة "المفضليات" : وشعر ذي الرمة وشعر
أعشى بكر وشعر الحطيئة وكتاب الكامل للمبرد الخ .

وأما أبو علي القالي فإنه خلف آثارا عميقة في الحياة الأدبية هناك من
خلال دروسه بقرطبة، ومن خلال مؤلفاته مثل النوادر والأمالى التى أولع بها
أهل الأندلس (ولأبى عبيد البكرى: كتاب اللآلى فى شرح الأمالى)، وأيضاً من
خلال ما حمل لهم من مؤلفات أدبية مشرقية ذكرها ابن خير فى فهرسه ، ومنها:

شعر ذى الرمة

شعر الخنساء

شعر الحطيئة

شعر جميل

شعر معن بن أوس

المفضليات

شعر النابغة الذبياني

نقائض جرير والفرزدق

شعر مالك بن الريب

شعر النابغة الجعدى

شعر عدى بن زيد

شعر عمر بن أبى ربيعة

شعر أبى نواس

جزء من شعر أبى تمام

وفى فهرست ابن خير أيضاً حديث مستفيض عن الأندلس أبى

تمام وبالمتنبى.

أما أبو تمام فإن شعره ذاع هناك عن طريق عدة روايات منها رواية الرحالة

البغدادي أبي اليسر ابراهيم بن أحمد الرياضى وهو الذى نشر فى افريقية والأندلس شعر المحدثين وأخبارهم ^(١) كما يذكرون فى هذا الصدد اسم عثمان بن المثنى، أحد مؤدبى قرطبة (ت سنة ٢٧٣) وفى شأنه يقول الزبيدى فى طبقاته: إنه "رحل الى المشرق فلقى حبيب بن أوس ، فقرأ عليه شعره، وأدخله الأندلس"، وأيضاً اسم الأديب الشاعر مؤمن بن سعيد الذى تقابل مع أبى تمام فى بغداد .

كما ذاع ديوان الحماسة بين أهل الأندلس واعتنوا بشرحها ومن شراحها ابن سيده وعاصم بن أيوب البظليوسى وأبو عامر بن يئق الشاطبى وأبو اسحاق بن ملكون صاحب "إيضاح المنهج" وفيه جمع بين كتابى التنبيه والمبهج لابن جنى فى شرح الحماسة ^(٢)

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الأندلسيين كانوا عالة على المشاركة فى اللغة والأدب ، فقد كانت لهم جهود ذات شأن فى كل ميدان، ومما ألفوه فى النحو والغة : الاستدراك على سيبويه وطبقات النحويين واللغويين ولحن العوام للزبيدى، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل لابن السيد البظليوسى (صاحب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، وكتاب الانتصار ممن عدل عن الاستبصار والحل فى شرح أبيات الجمل والرد على النحاة لابن مضاء القرطبى والمخصص لابن سيدة الخ .

ومن مؤلفاتهم فى الأدب ، غير ما ذكرنا، كتاب العقدة لابن عبد ربه واحكام صنعة الكلام للكلاعى وبنية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى ، وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى والحلة السيراء

(١) فهرست ابن خير ص ٤٠٢ ، وقرأ دراسة شيقة للدكتور محمد بن شريفة بعنوان : أبو تمام وأبو الطيب فى أدب المغاربة ، بيروت ١٩٨٦ .
(٢) منه مخطوطة فى الاسكوربال (رقم ٣١٢) وأنظر عنها د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

لابن الأبار وقلائد العقيان ومطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس
للمفتح بن خاقان والدخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لعل بن بسام الشنترنى -
ويعد أهم مؤلفاتهم فى تاريخ الأدب ولعبادة بن ماء انسماء الشاعر الوشاح -
وهو من تلاميذ الزيديدى - كتاب (ضائع) فى أخبار شعراء الأندلس والأعلم
الشنتمرى (ت ٤٧٦) أشهر من عكف على جمع وشرح المجاميع والدواوين
الشعرية مثل شعراء الستة الجاهلين وكتاب الحماسة ودواوين زهير وعلقمة الفحل
والنايعة ، وقدم أبو بكر عاصم بن أيوب البلوى شروحا على الحماسة وأشعار
الستة الجاهليين ، كما ألفوا بدورهم مجموعات على غرار حماسة أبي تمام منها
حماسة الأعلم الشنتمرى التى ضمنها حماسة أبي تمام والحماسة البصرية وحماسة
الجرجاني وغيرها ورتب أشعارها وأبوابها وشرحها شرحا مفيدا^(١) الخ وقد
ضاعت آثار كثيرة بسبب العوامل التاريخية التى ذكرناها ، ولاتزال أعمال
أندلسية جليلة القدر مخبوءة عن القراء ، متوارية فى خزائن المخطوطات العامة
والخاصة ، وهناك - بما هو مطبوع - غير ما ذكرنا:

- البديع فى وصف الربيع ، لأبى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى
نشره هنرى بيريس بالمغرب سنة ١٩٤٠ ، وأعيد نشره مؤخرا ، وموضوعه واضح
من عنوانه ، وكل مادته - ما خلا مقطعات لابن الرومى - أندلسية خالصة

- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، لى بحر صفوان بن ادريس
التجيبى المرسى ، وكان عبد القادر محداد قد نشره فى بيروت ١٩٣٩ ثم أعيد
نشره فيها سنة ١٩٧٠ ، وهو منتخبات نفيسة من دواوين شعراء عصر الموحدين
مثل ابن حبوس وأبى العباس الجراوى وابن مجبر ، وابن عبد الونس القسطللى
وابن زهر الحفيدو وترجع أهميته إلى أن معظم الدواوين التى رجع إليها - ان
لم تكن كلها - مفقودة .

(١) د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

- المطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب عمر بن حسن بن دحية، وفيه ترجمات ونصوص قلما توجد فى غيره، خاصة ماتعلق بابي الحكم الغزال
- تحفة القادم لابن الأبار ، وقد عارض به كتاب "زاد المسافر" ، وفيه بدوره ترجمات ونصوص ممالا يوجد فى غيره
- الحلة السبراء لابن الأبار أيضا، وقد وصفه محقق الكتاب د. حسين مؤنس بأنه دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة بل هو من عيون مآلف أهل الأندلس قاطبة، ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أي ناحية من نواحي الحياة فيه "
- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد: وهو موسوعة أدبية ضخمة تشمل الأندلس وصقلية والمغرب ومصر ، وقسم بحسب المدن والأقاليم وفائدته أعم من أن تحصى
- ومن كتب ابن سعيد كذلك :
- القدح المعلى فى التاريخ المحلي ونشر منه اختصار بالقاهرة (١٩٥٩)
- بعناية ابراهيم الإبيارى ثم أعيد نشره . ١٩٨٠
- الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ونشره ابراهيم الابيارى بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ثم أعيد نشره سنة ١٩٦٧
- رايات المبرزين وغايات المميزين ونشره جومث فى مدريد سنة ١٩٤٢ ثم حققه بالقاهرة د. عبد المتعال القاضى سنة ١٩٧٣
- كتاب الغراميات، وهو مفقود ، ونشر قسم منه بتحقيق د.سعيدة محمد رمضان فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
- المقتطف من أزاهر الطرف، وقد نشر د. عبدالعزيز الأهوانى قسما منه يتعلق بالموشحات والأزجال ثم نشره كاملا د. سيد حنفى بالقاهرة سنة ١٩٨٤ .

عنوان المرقصات والمطربات، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ، ثم نشر في بيروت سنة ١٩٧٣ في طبعة سقيمة

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، احد أساطين الأدب والعلم في الأندلس في العصر الغرناطي ، وكتابه هذا وان ركز على غرناطة إلا أنه بعد في واقع الأمر بمثابة تاريخ شامل للأندلس وقد نشره بالقاهرة محمد عبد الله عنان. وللسان الدين بن الخطيب حشد من المؤلفات ، من أهمها في مجال الأدب :

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة

ريحانة الكتاب ومجعة المنتاب

السحر والشعر

جيش التوشيح

روضة التعريف بالحب الشريف

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. وهذا الكتاب موسوعة عامة عن الأندلس تاريخها وأدبها، وهو "أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، وكان مصدرا لأكثر ما عرفه المشاركة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر ؛ وقد طبع في بولاق سنة ١٢٧٩ ونشر القسم الألي من النفع في ليدن سنة ١٨٥٥ بعناية طائفة من المستشرقين على رأسهم دوزي ، كما ظهرت منه طبعة بإشراف الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .(القاهرة ١٩٤٩) وأخرى نشرها د. احسان عباس (بيروت ١٩٦٨)

وللمقرى كتب أخرى ذات فوائد أدبية جمة أهمها ولاشك "أزهار الرياض في اخبار عياض" طبعت منه ثلاثة أجزاء بالقاهرة (١٩٣٩-١٩٤٢) بعناية مصطفى السقا ومن معه ثم نشرت بقية الكتاب بالمغرب مؤخرا (١٩٨٠).

وربما كان فى تناول أوضاع المرأة مايساعد على إبراز بعض ملامح الشخصية الأندلسية، وبعيدا عن التفصيلات : فالثابت أن المرأة كان لها فى المجتمع الأندلسى مكانة بارزة ، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك كثرة عدد الشاعرات، وأقدمهن ، فيما يذكر صاحب "نفع الطيب"، "الجارية العجفاء" - من شاعرات القرن الثانى ، وكانت من جوارى عبد الرحمن الداخل ولها شعر رقيق فى الغزل، وهناك أيضا حسانة التميمية التى تعد أول شاعرة "أندلسية" بمعنى الكلمة، إذ انها ولدت على أرض الأندلس، وعاشت فى أخريات القرن الثانى الهجرى، ومن الشاعرات المبرزات حفصة بنت حمدون الحجازية - وكانت فى المائة الرابعة، على حد تعبير صاحب "المسهب"^(١) - وهناك شاعرة حجازية أخرى من أصل بربرى هى أم العلاء بنت يوسف^(٢) وبعضهن ينتمى لعائلات ذات حسب ونسب مثل ولادة بنت المستكفى - ولنا إليها عوذة - ومثل أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح

ومن شاعرات الأندلس المشهورات نزهون الغرناطية - بنت القليعى - وحفصة بنت الحاج -وهى غرناطية أيضا - وقد أحبها أبو جعفر أحمد بن سعيد وزير بنى عبد المؤمن وناقسه فى حبها الملك الموحدى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ومن جميل شعرها الغزلى :

أغار عليك من عيني رقيبى

ومتك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعتك فى عيونى

إلى يوم القيامة ماكفانى

(١) المغرب ٢/٢٧

(٢) شرحه ٢/٢٨

وهى لا تتورع أن تكتب الى وزيرها العاشق:

أزورك أم تزور فإن قلبى

الى ماتشتهى ابدأ يميل

وقد أمنت أن تظمى وتضحى

إذا وافى الى بك القبول

فثغرى مورد عذب زلال

وفرع ذؤابتى ظل ظليل

فعجل بالجواب فما جميل

أناك عن بثينة يا جميل

وفى هذه الأبيات ما يذكر بما وجهه النقاد من نقد لعمرين أبي ربيعة أذ جعل النساء فى شعره يعرین عن مشاعرهن تجاهه ، على نحو ما أورد صاحب "العمدة" الذى أضاف بعد ذلك :

قال بهم - أظنه عيد الكرم : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة، والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النخيزة فى العرب وغيرتها على الحرم^(١) وأظن أن ذلك ينطبق على الشاعرة حفصة بوضوح

والباحثون متفقون على أن الأندلسيين ذهبوا بتبجيل المرأة الى مدى بعيد للغاية ويمكن القول بأن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقروا فى

(١) العمدة ج٢ ص ١٤٨ وراجع د. عبد العزيز الأهوانى: الزجل فى الاندلس ، ص ٥ .

أنفسهم علاقتهم بها لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية أو ان شئت الدقة لتكون اكثر فطنة والطف رقة وأروع تهديبا وأصقل ذوقا.. والنماذج المحموده فى اسبانيا الإسلامية ليست مميزة للطبقة المتميزة . انها تمتد فى كل مكان وتظهر عفويا ، ملونة هنا وهناك بالسخرية البرينة ، وبالتربية المصقولة"^(١)

والخلاصة أن أوضاع المرأة فى الأندلس كانت ، بصورة عامة ، أفضل من مثيلاتها فى الشرق، حقيقة إننا لانجد فيد من تناظر "شجر الدر" مثلا ، ولكن المرأة فى الأندلس تولت عددا من المناصب الهامة فى الدولة " فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبدالرحمن ، وهى نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، عروضية خطاطة، وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة فى الخط، وشارك بعضهن فى رواية الحديث، ^(٢) وما ينبغى أن يذكر فى هذا الصدد أن ابن حزم فى "الفصل" رأى أن الحديث القائل بأن النساء ناقصات عقل ودين لا يؤخذ على الإطلاق وفى جميع الأحوال "اذ بالضرورة ندرى أن فى النساء من هن أفضل من كثير من الرجال، وأتم دينا وعقلا.." ^(٣)

هذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال عن الأندلس ، ولاشك أن هناك تحفظات ينبغى أن تساق بشأن بيئات محلية معينة، وبشأن مراحل تاريخية مختلفة، ولكننا نعتقد أن تلك الخطوط العريضة التى مرت ترسم - على علاقتها - صورة عامة عن الأندلس ، ولاشك أن أبعاد هذه الخطوط العامة سوف تزداد وضوحا من خلال الحديث عن مسارات الأدب الأندلسى عبر عصوره المختلفة ..

(١) د. بيريى : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف :ترجمة د. الطاهر مكى ص ٣٧١

(٢) د. احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس (عصر سيادة قرطبة) ص ٢٦

(٣) الفصل ج ٤ ص ١٣٢

الشعر الأندلسي

من البدايات إلى مرحلة النضج

إن التقسيمات التاريخية والسياسية التي مرت بما يستعين به دارس الأدب لاعتبارات كثيرة لسنا في مجال حصرها الآن، ولكنها - على كل حال- لا يمكن أن تلزمتنا بإخضاع دراسة نشأة وتطور الأدب لها، على الرغم من أن صور الأحداث السياسية التي مرت بها الأندلس كانت ماثلة في صميم هذا الأدب، وأصداء التحولات الاجتماعية كانت تتبدى مع كل مرحلة مرت بها أعمال هؤلاء الأدباء . فإذا مافتشنا عن سبيل لقياس "أندلسية" الأديب من غيره لم نجد إلا مقاييس نسبية من قبيل ماأورده ابن حزم من أن الإجماع معقود "على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكانها إلى أن مات .. فمن هاجر البنا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا، الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا إلى غيرنا فالنظ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به " (١) ويقول كذلك :

"وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ماإن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومداد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرى جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به

(١) ابن حزم في رسالة في فضل الأندلس ، راجع بشأنها د. احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ج ١ ص ٤٣ ، ونص الرسالة ص ٣٤٧ - ٣٦٩

الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا احمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبى فكيف لنا ومعه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان واغلب ابن شعيب ومحمد بن شخيص واحمد بن فرج وعبد الملك سعيد المرادى ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه .." (١)

وفى إشارات ابن حزم ما يدل دلالة قاطعة على أن جيل "الرواد" من الشعراء بالأندلس كان يضم بين جنباته أسماء كثيرة جاءت الي الأندلس من المشرق، والملاحظة الثانية أن جميع من ذكرهم - باستثناء ابن دراج - فقدت دواوينهم ، ولم تبق لهم الا شذرات مبعثرة هنا وهناك ، مما يكشف عن مدى حجم الضياع الذى تعرض له التراث الأدبى والعلمى الأندلسى.

ولا يعرف شئ كبير عن جموعة هذا إلا أنه كان شاعرا فارسا ، ولذا يلقب بـ "عنترة الاندلس" (وسبتداً ظاهرة تلقيب شعراء الأندلس بألقاب مشرقية تتوالى تباعا) وأنه كان يعيش فى نواحي قرطبة فى أخريات عصر الولاة وهناك شاعر آخر ظهر فى هذه الفترة هو أبو المخشى عاصم بن زيد (٢) ، ونهجه كذلك نهج البداوة فى شعره (وهو أبو الشاعرة حسانه التى ذكرت قبلا) ولم تحفظ الكتب له الا مقطعات قليلة منها قوله :

وهم صافنى فى جوف ليل

كلا موجيهما عندى كبير

(١)رسالة فى فضل الأندلس ، ص ٣٦٨

(٢) يعود أصله الى نصارى الحيرة، وكان هجاء ، متريدا على الأمراء بمذائحه . راجع عنه ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ وفى الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٧٧ وابن سعيد فى المغرب ١٢٣/٢ الخ ..

فبتنا والقلوب معلقات

وأجنحة الرياح بنا تطير

والبيتان فيهما رهافة ، وصور حية رائقة، والصورة الأخير "وأجنحة الرياح بنا تطير " تهيم السامع لوثبة شعورية من خلال مقطع عن الترحال والاعتراب أو نحو ذلك لكن النص - مع الأسف - يبتتر عند هذا الحد، ولعله من قصيدة فى المديح، فقد كان أبو المخشى يتردد على أمراء البيت الأموى ، والمرجح أنه توفى فى اخريات القرن الثانى الهجرى .

وهناك أيضا عباس بن ناصح الجزيرى ، نسبة للجزيرة الخضراء ، ولكن نشأته بمصر، وله رحلة للحجاز وللعراق ولقاء مع أبى نواس ثم عودة للأندلس، ولا توجد من شعره الا نتف لا تكشف على نحو واضح عن مدى قيمته ومن عجيب الأمر أن ابن حزم أغفل الإشارة الى عبدالرحمن (الداخل)، فهل مرجع ذلك الى أنه كان أميراً فارساً مشيداً للدول فاتحاً للممالك ، قبل أن يكون منشئاً للقصائد، مدبجاً للأبيات؟ ربما، على أن مؤرخى الأندلس لم يغمطوا الداخل نصيبه من الشاعر به ، وهاهو المراكشى يصفه فى "البيان المغرب" بأنه "كان فصيحاً بليغاً حسن التوقيع جيد الفصول مطبوع الشعر"، وستتوقف أمام هذا الشعر لأنه جيد حقاً، ولأنه يكشف عن أزمة هؤلاء الوافدين الذين أحسوا بأن مصيرهم مرتبط بالأندلس ، لكنهم كانوا يشعرون فى الوقت ذلك بفرط الحنين الى الديار المشرقية الغائبة وراء الأفق ، مفعمة بالذكريات الندية الأسرة ، مترعة بصور الطفولة اللاهية والشباب الذى انطفأ وميضه مع الأيام. هكذا تنداح أبيات الداخل وقد رأى من يتأهب للرحيل للمشرق :

أيها الراكب الميمم أرضي

أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمى كما علمت بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا
فعمسى باجتماعنا سوى يقضى

أو يقول (بديهة ، فيما يذكرون) وقد مر على رصافة قرطبة، فهاجت فى صدره الذكريات، وحركت "نخلة منفردة" أشجانه ، فصاح لسانه بهذا النشيد
المتاع :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناهت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت: شبيهى فى التغرب والنوى
وظول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الرزى
يسح ويستمرى السماكين بالويل

لماذا حركت النخلة كل هذا الشجو الطاغى ، ودفعته لأن يرى فيها
"معادلا" لغريته، يعترف أمامه بما تخفيه لواعجه، لماذا يتكرر ذكر النخلة فى
البيت الأول ثلاث مرات متواليات ولماذا هذا الالتجاء على "التغرب" و "النوى" و
"الاقصاء" و "المنتأى" ، حتى لنحس بالدموع تنساب على وجنتيه، واختلاجة
الأسى تنتفض بين أضالعه ...؟

ومن الملاحظ أن هناك مقطوعة أخرى على غرار السابقة تقول
أبياتها :

يانخل أنت غريبة مثلى

فى الغرب نائية عن الأصل

فابكى وهل تبكى

عجماء لم تطيع على خيل

لو أنها تبكى إذن لبكت

ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت، وأذهلتنى

بغضى بنى العباس، عن أهلى

والمقطوعة الأخرى تنسب أحيانا لأمير أموى آخر هو عبدالمك بن عمر
ابن الحكم الذى اجتاز فى قصده قرطبة ... بمدينة اشبيلة فرأى فى موضع
منها.. نخلة مفردة، فلحقته رقة عند النظر اليها ، وقال بديها الأبيات المذكورة"
أيا كان الأمر فإن فى شعر الداخل ظواهر لاتخفى^(١)، منها أنه فى
معظمه يأتى "مقطوعات" لاقصائد، ومدارها حول "الذات" فى ضعفها وأيضا فى

(١) راجع أيضا مقطوعته التى أولها:

منتضى الشفرتين نصلا
مساميا لجة ومحلا
ومنبرا للخطاب مصلا
ومصر المصر حين أخلى
حيث انتأوا أن هلم أهلا
شريد سيف اباد قتلا
وحاز مالا وضم شمالا
أعظم من منعم ومولى

شتان من قام ذا امتعاض
فجباب قفرا وشق بهرا
فشاد مجدد ويز ملكا
وجند الجند حين أودى
ثم دعا أهله جميعا
فجاء هذا طريد جوع
فنال أمنا ونال شيعا
ألم يكن حق ذا على ذا

توثبها وإبانها وما يندلع فيها من روح التحدى والكبرياء، مثل أبياته التى قالها وقد بلغه أن أحد المقرين له قال مامعناه ان الداخلى لم يبلغ ما بلغ من شأن إلا بفضل مؤازرته له ، فاعترت الداخلى غضبة عبر عنها شعرا بقوله :

لا يلف ممتن علينا قائل

لولاى ماملك الأنام الداخلى

سعدى وحزمى والمهند والقنا

ومقادير بلغت وحال حائل

ان الملوك مع الزمان كواكب

نجم يظالعنا ونجم آفل

والخزم كل الخزم ألا يتقلوا

أيريد تدبير البرية غافل

ويقول قوم سعده لاعقله

خير السعادة ما حاماها العاقل

ابنى أمية قد جبرنا صدعكم

بالقرب رغما والسعود قبائل

ما دام من نسلى إمام قائم

فالملك فيكم ثابت متواصل

وامتد الإحساس الشعرى الى الكثيرين من أمراء بنى أمية فى الأندلس ، مثل هشام الأول (الرضا) ابن عبد الرحمن الداخلى، وعنه يقول المقرئ إنه كان "إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرنا"، أما الحكم (الريضى) ابن هشام ففيه يقول صاحب الحلة السيرة: "كان أدبيا مفتنا ، وخطيبا مفوها وشاعرا مجودا ، تحذر صولاته ، وتستندر أبياته" وله قصيدة مشهورة قالها عند فتكه

بأهل الرض لما ثاروا عليه، ووصفت بأنها: أحسن شعر قبيل فى معناه" (١)

وأولها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا

وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة

أبادرها مستنضى السيف دارعا

وله أيضا قصيدة أخرى ذات طابع بطولى ، يقول فيها:

غناء صليل البيض أشهى الى الأذن

من اللحن فى الأوتار واللهو والردن

إذا اختلفت زرق الأسته والقنا

أرتك لجرما يظلعن من الطعن

ومع ذلك فان للحكم شعرا كله شكوى من هجر المحبوب وعذاب الهجران

والتذلل والتضرع على نحو ما يأتى فى قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا

ولقد كان قبل ذاك مليكا

ان بكى أوشكا زيد ظلما

وبعادا بدنى حماما وشيكا

هكذا يحسن التذلل فى الحب

(م) إذا كان فى الهوى مملوكا

(١) المغرب ٤٤/١

ومن ابرز الأمراء الشعراء أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وكذلك
المستعين . سليمان بن الحكم) الذى تأثر بالأبيات المتسوية لهارون الرشيد :

ملك الثلاث الأنسات عنانى
وحلن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه قوين - أعز من سلطانى

فكتب هو :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لامتهيبا
منها سوى الإعراض والهجران
وقلكت نفسى ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لمن لناظر
من فرق أغصان علي كئيبان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري
حسنا وهذى أخت غصن البان
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى
ذل الهوى عز وملك ثان

ومن شعراء البيت الأموي أيضا (المستظهر) - عبد الرحمن بن هشام ،
الذي يوصف بأنه كان على حداثة سنه يقظا ذكيا صاحب "بديهة رويه وبصوغ
قطعا من الشعر مستجادة"^(١) ومن أشهر شعره قصيدته فى محبوبته "العشمية"
التي نوهت به مصادر الأدب الأندلسى مثل "الذخيرة" و "الحلة السبراء" و
"المعجب" ، ولهم الحق فى هذا التنويه فإنها نمط رفيع من الشعر، يجمع بين
الكلاسيكية التعبير وصدق الشعور وبراعة الصور وحيوية الأداء ، وقد استهلها
بما لاقاه من عدم ترحاب أهل محبوبته به ، ثم اتجه إلى "الحبيبية" - وكان اسمها
كذلك - ليقول فى صدق وسذاجة:

جعلت لها شرطا على تعبدى

وسقت إليها فى الهوى مهجتى مهرا

تعلقتها من عيد شمس غريرة

معدرة من صيد آباتها غرا

حمامة بيت العشميين رقرقت

فطرت إليها من سراتهم نسرا

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى

يضرك منه أن تكونى له فطرا

وانى لأستشفى بجزى بداركم

هدوما واستسقى لساكنها القطرا

وألصق أحشائي ببرد ترابها

لأطفئ من نار الأسى بكم جمرا

وفى هذه القصيدة نفحات من غرر قصائد ذى الرمة وجميل بثينة ولعلها

(١) الذخيرة ١ / ٥٧

من أجود ماألف فى زمانها نصابة عبارة وصدق إحساس .

ويمكن القول بأن حركة الشعر إبان هذه الفترة تخضع لمجموعة اعتبارات ، منها ان الأسماء البارزة فى الأدب ذات أصول مشرقية واضحة ، وأن هذا الشعر يتأرجع بين الطابع القديم النمط الجديد الذى بدأ يتألق بالمشرق على أيدي المجددين الكبار من أمثال بشار وأبى نواس وكأنما كان الشعر انذاك فى مرحلة ترقب، ينتظر من يعينه ليصل الى مرحلة النضج والاكتمال ، ويضفى عليه طابعا يميزه عبر الزمن .

يحيى بن الحكم الغزال واكتمال الشخصية الأدبية الأندلسية

مرت بنا فى الصفحات السابقة ملامح مما كتب فى الأندلس على أيدى الشعراء الطارئين، وبعض أمراء البيت الأموى من ذوى الميول الأدبية، وهذا كله يمثل البدايات التى لم تشكل تياراً أو اتجاهها واضح المعالم محدد السمات ، ذلك أن الحركة الأدبية فى بلد من البلدان لا تنهض بين يوم وليلة كما قد تنشأ الدول ، وإنما هى نتاج محاولات شتى لا تنضج إلا ببطء ، ومن خلال عشرات التجارب والمحاولات والرأى السائد فى هذا الصدد يقول إن :

" الشعر الأندلسى الذى رسخ أصوله أناس نبتوا فى البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا فى حدود سنة ٢٠٠ هـ - وهذه حقيقة هامة فى نشأة ذلك الشعر وفى النماذج التى احتذاها والمجالات التى كان يرودها، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكون حين كان الشعر المشرقى يشهد تجديد بشار وأبى نواس، ويقف على مفترق الطرق بين مذهبى أبى تمام والبحترى ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفون فى كل شئ إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالا يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أى أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو النموذج الكبير الذى استوحوه فى أشعارهم وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم" (١)

ومن حسن حظ الأندلس أنها شهدت مع أخريات القرن الثانى الهجرى ظهور شاعر يصح أن يقال عنه إنه "أندلسى" بحق، بحياته، وبالروح الشعرى الذى نضج عنده ، وبطبيعة الموضوعات التى عالجه، هذا الشاعر هو يحيى بن

(١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ج ١ ص ٤٨

الحكم الغزال (١٥٠ - ٢٥٠ هـ ، ٧٧٠ - ٨٦٤ م)، وصدق من قال إن الشخصية الغزال سحرها الخاص، لا يملك من يتعرف عليها إلا الإحساس بالإعجاب والمحبة، المعاشة ان لتلقى فيه الشاعر الساخر فى الموقف العصيب، أو الدبلوه. سى البارع الخفيف الظل ، فتعجب به، وتلمح فى سريره النقاء والصفاء النهسى فتحبه وتطلع على من اعماقه ومحاوراته فتحسن أنك تعيش على مقربة منه، ويبقى السحر الخاص أبعد من أن تفسره علاقات المعاشة والمحبة والإعجاب، ثمة شئ آخر، شئ يشبه أن يكون "سرا" معلقا حاول الأندلسيون أن ينفكوا طلاسمه فزادوه انغلاقا حين سموا الغزال: "عراف الأندلس"، وفى المعجم "وقال للحازى: عراف، وللقناقن: عراف وللطبيب عراف والحازى هو الذى يقرأ الأسرار ويدعى علم الغيب، والقناقن: المهندس الذى يعين مواضع الماء تحت الأرض، فأى ذلك كان الغزال حين أطلق عليه عراف الأندلس"؟ أسئلة تتوالى - وكثير منها بقى بلا جواب، عن هذا الشاعر الداهية، التى أضيف الى جوانبها "الأسرارية" أنه ارتحل الى العراق متنكرا ، فيما يقال،^(١) وفى بعض الإشارات عنه ما يكشف عن تطلعه لأن يكون وريث زعامة الشعر من بعد أبى نواس ، ثم نرى له عودة إلى بلاده، وسعى إلى الثراء يقوده إلى السجن، ورحلات وسفارات إلى "بلاد المجوس" - حكايات كثيرة عن هذا الشاعر الوميم "ومن ثم لقب بالعلل" هى التى سوف نحاول التعرف عليها من خلال ما سلم من شعره، ذلك أن ديوانه قد فقد وما وصل إلينا من أعماله ، لا يكاد يبلغ ثلاثين أو أربعين صفحة.

ولسنا نريد أن نشغل طويلا بتفصيلات حياته أو بالأحرى بما وصل إلينا منها وبحسبنا أن نذكر أنه ينحدر من أصول عربية عريقة (من بنى بكر بن وائل) وأنه ولد فى مدينة جيان فى الجنوب الغربى من شبه القارة الأيبيرية، سنة ١٥٠ أو نحوها (وبعض المراجع تجعل تاريخ مولده سنة ١٥٤ هـ) فى زمن

(١) مقدمة كتاب من صادق البندان : يعنى بن الحكم الغزال (احسان عباس)

إمارة عبد الرحمن الداخل ، وتربى تربية دينية جيدة ، كما نشأ على "أخلاق الشروسية" كما تقول المصادر ، وقد عمر قرابة مائة سنة مما يدل على قوة بنيانه. وعاصر خمسة من أسراء البيت الأموي هم: عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ثم الحكم وعبد الرحمن الثاني، وجانبها من إمارة الأمير محمد، وله فى ذلك - من أرجوزة :-

أدركت بالمصر ملوكا أربعة

وخامسا هذا الذى نحن معه

واكتسب خلال عمره هذا المديد قدرا هُوفورا من الثقافة فى علوم اللغة والبلاغة والأدب والفلسفة والفقه والفلك ، كما يذكرون أنه كان يجيد الروميه - اللاتينية - واهتم بالتاريخ ، ويذكرون له فى هذا الصدد أرجوزته - التى ذكرنا شيئا منها - فى التاريخ لفتح الأندلس ، وقد اطلع عليها مؤرخ الأندلس ابن حيان ، صاحب "المقتبس" و "المتين" وأشاد بها بما يكشف عن أنها كانت جميلة طويلة عرض فيها أسباب الفتح والفتوح التى جرت بين المسلمين وأهل البلاد، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع فى أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس، وقد ضاعت هذه الأرجوزة^(١) ولعلها من أوائل الأراجيز التعليمية التاريخية فى الادب العرب ان لم تكن أولها جميعا، ذلك انها أسبق من أرجوزة ابن المعتز فى تاريخ البيت العباسى ، وأسبق بطبيعة الحال من أرجوزة ابن عديريه فى التاريخ الأندلسى .

وفى بعض المصادر ما يدل على أن الغزال حاول محاكاة القرآن الكريم فما هو القاضى عياض فى "الشفنا" يقول: "وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه، فحكى أنه رام شيئا من هذا، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها. قال: فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى

(١) نقل عن تاريخ الفكر الأندلسى لبلانسيا ص ٥٦

على التوبة والإنابة" (١) ، ويبدو هذا غربيا على شخصية أندلسية بارزة مقربة من الملوك والأمراء ، وفي هذا التصرف ماقد يكشف عن سلوك فردى أو عن مسلك "أندلسى" وهو - من الناحية الأدبية - يدل دلالة قاطعة على أن الغزال كان مبرزاً في النثر تبريزه في الشعر وإيثارا للإيجاز نترك جانبا الأمور الزخري المتعلقة بحياته ، والموضوعات المختلفة التي تردت في شعره لنتوقف فحسب زمام السمات الأساسية كما تتمثل في شعر النقد الاجتماعى وفي حديث سفاراته ؛الدبلوماسية" ببلاد "المجوس"^١

- شعر النقد الاجتماعى:

للحميدى فى جذوة المقتبس جملة تقول إن "الغزال رئيس، كثير القول ، مطبوع النظم فى الحكم والجد والهزل"^(٢) وقال الضنبى فى "بغية الملمس" إن الغزال ؛جليل فى نفسه وعمله ومنزلته عن أمراء بلده^(٣) وأجمل مؤرخ الأندلس فى العصر الحديث محمد عبدالله عنان ، الحديث عن هذه المكانة قائلاً:

؛بالإضافة إلى صفة الشاعر الفيلسوف، والمفكر الحر، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هى صفة الحكيم الناصح، والسياسى المحنك ، واشتهر بأصالة الرأى وحسن التدبير واللباقة والدهاء ، مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، لكن هذه الخلال كانت تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير"^(٤)

ومن المهم أن نشير إلى هذه المكانة ونحن بصدد الحديث عن شعر النقد الاجتماعى عنده لأن الغزال - على ما سنرى - كان سليط اللسان أحياناً بحيث

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٥/١ وراجع نفع الطيب ج ٢ ص ٢٦١

(٢) جذوة المقتبس ، السابق

(٣) بغية الملمس رقم ١٤٦٧

(٤) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ١٢٨

أوغر صدر عدد من الناس عليه ، ومن هؤلاء المغنى الشهير زرياب الذى انتقل من بغداد إلى قرطبة حيث احتل عند أميرها عبدالرحمن (الثانى) منزلة مرموقة، وأصبح زرياب شخصية اجتماعية من الطراز الأول فرضت على المجتمع ذوقها ونظرياتها فى الثياب وتناول الطعام وطبيعة الغناء، وربما أثارت هذه المكانة الغيرة فى نفس الغزال فأطلق أهاجيه فى زرياب (ولم يصل إلينا منها شئ) وأثرت هذه الأهاجى فى زرياب فشكاه إلى الأمير، فكان أن أصدر هذا قرارا بنفى الغزال، ولجحت الوساطة فى دفعه للعدول عن أمره هذا ، إلا أن الشاعر الكبير حز فى نفسه أن تؤول الأمور الى هذا الموقف ، فارتحل عن البلاد الى بغداد حيث بقى فيها زمنا وقد خاض الغزال معركة ضارية ضد بعض الفقهاء والقضاة المرتشين والمتعسفين ، وكان مما قاله وقد سأله قاضى قرطبة - معاذ بن عثمان - عن رأيه فى أحد من ولاهم أحياس قرطبة :

يقول لى القاضى معاذ مشاورا

وولى امرأ ، فيما يرى ، من ذوى الفضل

فديتك ، ماذا تحسب المرء صانعا؟

فقلت : وماذا يصنع الدب بالنحل؟

يدق خلاياها ويأكل شهدها

ويترك للذبان ماكان من فضل!

ويقول فى فقهاء عصره اذ رأهم وقد تضخمت ثرواتهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا

ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الر

(م) زق والقوم هاهنا قاعدونا

إن للقوم مضربا غاب عنا

لم يصب قصد وجهه الراكبونا

ولم يكن الغزال يتوانى عن توجيه النصيح لذوى الجاه حتى يرعوا ،
راسما صورة واقعية لما يؤول اليه خالهم بعد أن ينطوى عنهم بريق السلطان :

وإن أعطيت سلطانا

فحاذر صولة الزمن

أخو السلطان موصوف

بحسن الرأى والفظن

فساعة مايزاوله

رماء الناس باللعن

ويصبح رأبه المحمود

منسوبا الى الأفن

كان بشاشة السلطا

ن حين تزول لم تكن !

وقد حاول هؤلاء الفقهاء النيل من الغزال ، مستغلين بعض ما جاء فى شعره من تساؤلات حائرة عن القضاء والقدر والواقع أن الغزال لم يكن ملحدا ولا متشككا. لقد كان مسلما وزاهداً ، ولو أنه فى بعض ساعاته نظم ما عن له عن النفس والروح بأسلوب يجوز أن نسميه اليوم بالأسلوب العلمى ، ولكن دون أن ننعت الغزال بالتخلى عن الإيمان والشك بالله عز وجل" (١)

ويبلغ الغزال الذروة من الإجابة والنقد اللاذع فى مقطوعاته "الاجتماعية"

(١) د. البنداق ، السابق ص ٣٨

من قبيل قوله:

وخيرها أبوها بين شيخ
كثير المال أو حدث فقير
فقلت :خطتا خسف وما إن
أرى من حظوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شئ
أحب إلى من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر بشرى
وهذا لا يعود إلى صغير

وقوله :

قلت أحبك ، قلت كاذبة
غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقيه
الشيخ ليس يحبه أحد .
سيان قولك ذا وقولك إن
(م) الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة
أو أن تقولى الثلج يتقد

بل إن الرجل لم يتوان عن تناول ذاته من منظور السخرية والنقد اللاذع،
الذى يتجسم فى قصيدته البائية "خرجت إليك وثوبها مقلوب" وتروى كتب
الأدب على لسان تاجر أندلسى يدعى عتبة: "وجهنى الأمير الحكيم وابنه
عبدالرحمن إلى المشرق . وكان عبدالله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون

عباسي، فلقيته بالعراق فسألني عن قصيدة الغزال التي مطلعها:

خرجت إليك وثوبها مقلوب

ولقلبها - طربا إليك - وجيب

وعما إذا كتبت أحفظها فقلت نعم، فاستنشدتها فأنشدته إياها، فسر بها كتبها، ونلت بها حظا عنده^(١)، فهذه قصيدة يحفظها الناس ويطلبها عشاق لأدب في مختلف الأقطار، لأنها نموذج فريد في نقد الذات على نحو لا يكاد يعرف عند سواه، وهو القائل أيضا في أرجوزة:

تسألني عن حالتي أم عمر
وهي ترى ما حل بي من العبر
وما الذي يسأل عنه من خبر
وقد كفاه الكشف عن ذاك النظر
وماتكون حالتي مع الكبر
أريد مني الوجه وأبيض الشعر
ونقص السمع بنقصان البصر
وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامني من ضامني لم أنتصر
فانظر إلي واعتبر ثم اعتبر

(١) البندان، السابق ص ٦٢ وللقصيدة رواية أخرى تختلف في كثير من الأبيات، ومطلعها في الثانية:

لم أنس إذ برزت إلى لعوب
طربا وحيث تمبصها مقلوب

فإن للحليم في معتبر (١)

سفارة الغزال :

هذا موضوع استهوى المؤرخين ، وكتبوا فيه كثيرا في محاولة للكشف عن غموضه ، خاصة وأن المصدر الأساسى حول هذه السفارة (كتاب ابن دحية الكلبي: المطرب فى أشعار أهل المغرب) متأخر عن الغزال بنحو أربعة قرون ، والمعضلة أيضا أن المادة التى يقدمها ابن دحية مضطربة وتخلو من التحديد المفترض فى المؤلفات ذات الطابع التاريخى .

ولن نوغل طويلا فى الاختلافات التى توقف المؤرخون من قدامى ومحدثين - بإزائها ، ونبدأ بكلام ابن دحية لنورد منه القليل الذى يغنى عن الكثير :

"ولما وفد على السلطان عبد الرحمن (الثانى) رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعها بجهاتها ثم هزمتهم بها ، وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك فأمر الغزال أن يمشى فى رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام ، والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب ، فنهض إلى مدينة شلب ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة ، وروجع ملك المجوس على رسالته ، وكوفئ على هديته ، ومشى رسول ملكهم فى مركبهم الذى جاؤوا فيه مع مركب الغزال" ..

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار ، وركوب الأخطار ووصل أول بلاد

(١) انظر أيضا قوله :

قال الأمير مداعبا بمقاله

ابن الجمال من امرئ أرى على

أين الجمال له ، الجمال من امرئ

جاء الغزال بحسنه وجماله

متعدد السبعين من أحواله

لقاه ريب الدهر فى أغلاله

المجوس.. وهى جزيرة عظيمة فى بحر المحيط ... وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ثم يمضى تقرير ابن بدحية ، ليتحدث عن لقاء الوفد - وعلى رأسه الغزال - بالملك ، الذى دهش من ذكاء الشاعر العربى وحسن تخلصه ولباقته ووصفه بتلك العبارة: "هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهانهم" أو هكذا كان الغزال حقا، وفى بقية الحديث

"وللغزال معهم مجالسٌ مذكورة، ومقاوم مشهورة، فى بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم . ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ، ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظرة المتعجب ، فقالت سله عن إدمان نظره لماذا هو ؟ ألقط استحسان أم لصد ذلك ، فقال: ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرا مثل هذا.." الى آخر المواقف الغزلية التى أفاض ابن دحية فى ذكرها ، ونقل أخبارا مما رويت عن رفاقة فى الرحلة تدل على أن الملكة " أولعت بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوما حتى توجه فيه، ويقوم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم ومن يجاورهم ... وكان الغزال فى اكتهاله وسيما ، وكان فى صباه جميلا، ولذلك سمي بالغزال ، ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد خطه الشيب.. ولكنه كان حسن الصورة وفى الحديث الذى مضى إشارة إلى :المجوس" الذين كانوا قد هاجموا إشبيلية ثم ارتدوا عنها مهزومين وأرادوا الصلح ، وهنا ينبغى تفسير تعبير "المجوس" على أنه يعنى "الفايكنج" أو النورمان الشماليين الذين كانت لهم بالفعل غزوة تحدث عنها ابن الأثير فى تاريخه "الكامل" - أخبار سنة ٢٣٠ وسماهم بدوره بـ "المجوس" لكن لسان الابن ابن الخطيب يورد رأيا آخر بشأن هذه الحملة، إذ يقول بصدد عهد الأمير عبدالرحمن الثانى - ابن الحكم - :

" وفى أيامه خرجت مراكب المجوس فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وشذونه واشبونة ثم انهزموا والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة

بالانقليش وأهل المشرق بالفرنح وبالانكليز، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين." وإذن فهناك رأيان بشأن المجوس: أن يكونوا سكان الشمال أو أن يكونوا الإنجليز ، وانعكس هذا الخلاف على كتابات المستشرقين والمؤرخين المحدثين ، وكان من رأي الفريق الأول أن ملك المجوس المعنى هو هوريك ملك الدفرك "بينما يذهب أصحاب الرأي الثانى (ومنهم المستشرق إلن) الى القول بأن المعنى هنا ملك ايرلندا تورغايس

وتنبغى الإشارة إلى طرف ثالث من أطراف النزاع، ذلك أن التاريخ يتحدث عن سفارة تمت انذاك بين أمير قرطبة - عن الرحمن الثانى - وبين يتوفيلس إمبراطور بيزنطة ، والذي كان يسعى إلى تغذية الصراع بين العباسيين وبين أمراء قرطبة الأمويين حتى لا تتجه كل القوى العباسية ضده وحده وكان ذلك فى سنة ٢٢٥ هـ على وجه التحديد (٨٣٦م) وقد أورد ابن حيان فى "المقتبس" أخبار هذه الفارة، ونقلها عنه المقرئ فى نفع الطب حيث يأتى "أن الأمير عبد الرحمن" بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم، فاعجبه حديثه، وخف على قلبه .. وكان يوما جالسا عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها..."^(١)

وللمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال رأى يرجح فيه أن رحلة الغزال كانت إلى القسطنطينية وأما الرحلة إلى بلاد النورمان (المجوس) فنسجها الخيال الشعبى ، ولم يكن لها وجود فعلى ، إلا أن هناك اتجاه آخر يتحدث عن سفارتين أولهما إلى بيزنطة والثانية الى ببلاد النورمان و وذلك فى محاولة للتوفيق بين ماجاء عن ابن حيان ثم ابن دحية .

وقد ورد اسم الملكة فى شعر الغزال على أنه (نود) ويصر بروفنسال على

(١) نفع ج ٧ ص ٣٧٢

أن يجعلها: تود لأن زوجة الأمبراطور البيزنطى كان اسمها انذاك تودورا ، بينما يرى غيره أن اسم (نود) يمكن أن يكون محويرا عن اسم نورمانى مألوف عندهم وأيا كان الأمر فإن الشعر الذى خلفه الغزال فى الملكة الأوربية يمثل حالة خاصة لا يكاد يوجد لها نظير فى الشعر العربى ، مثل هذه الأبيات :

كلفت يا قلبى هوى متعبا

غالبت منه الضيغم الأغلبا

انى تعلقت مجوسية

تأبى لشمس الحسن أن تقربا

أقصى بلاد الله فى حيث لا

يلفى إليها ذاهب مذهبا

يانود يارود الشباب التى

تطلع من أزرارها الكوكبا

يابأبى الشخص الذى لا أرى

أحلى على قلبى ولا أعذبا

إن قلت يوما إن عيني رأت

مشبهة لم أعد أن أكذبا

قالت : أرى فوديه قد نورا

دعابة توجب أن أدعبا

قلت له : ما باله إنه

قد ينتج المهر كذا أشهبيا

فاستضحكت عجباً لقولى لها

وإنما قلت لكى تعجبيا!

وهذا الشعر رواه ابن دحية وقال إن الغزال ارتجله بين يدي الملكة عندما سألته - مداعبة - عن عمره ، فرد عليها مداعبا كذلك : - عشرون سنة ، فأبدت دهشتها من الجواب ، فما كان منه إلا أن قال هذه الأبيات على البديهة!

ولسنا مطالبين بأن نصدق ما حيك من حكايات حول بعض شعر الغزال لكن الشيء المؤكد أننا نحس في شعره بذلك الوهج الناضر التلقائي ، الذي يواكب مسيرة الزمن - مهما طال الزمن - فلا يذبل أبدا ، وكان ابن دحية مصيبا عندما علق على الأبيات السابقة بقوله "إن هذا الشعر لو روى لعمر بن أبي ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس بن الأحنف ومن هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا إذ كان أندلسيا ، وإلا فماله أخمل وماحق مثله أن يهمل ؟"

وفي المقطوعات التي مرت يتبدى فن الغزال في قدرته على أن يرسم ببساطة المواقف ويحدد لها الشخصيات ويجعلها تنطق بما يلائم الموقف ، ويصنع في عفوية عجيبة "تراجيديا" مكتملة الأبعاد ، ولسنا نعنى أن الشعر القصصي لم يكن معروفا قبله ، ولكن ما نقصده أنه لم يكن بكل هذه الحيوية والتركيز والاتسجام بين المواقف والصور والجمل والإيقاع .

شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية (القرن الرابع وأوائل الخامس)

إلى أى حد تتبع قوة الأدب قوة الدولة التى يبزع فى زمنها؟ إن هذا التساؤل قد يبدو ضيئل الشأن أحيانا، لكنه - بالنسبة للأندلس - يستمد أهميته الخاصة، لأن "الدولة" هناك مرت بمراحل عجيبة من ارتفاع وانحدار وارتفاع، ولم تخضع هذه التحولات الحادة لمنطق واضح، ولم يخضع الأدب بدوره لهذا التآرجح بين القمة والحضيض...

ونحن مضطرون، فى هذا العرض الموجز، لأن نغفل شعراء لهم شأن مثل مؤمن بن سعيد، الملقب بـ "دعبل الأندلس" لكثرة شعره فى الهجاء، ومن جيد شعره قوله فى الدرهم:

تيمنى حبك يادرم

فالقلب من برح الهوى مغرم

يامشبه النجم إذا ما بدا

منك استعارت حسنها الأنجم^(١)

وأىضا محمد بن يحيى القلقاط، وعده الحجارى من نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء، وهو بدوره معدود ضمن الهجائين، وقد ذكر المقرئ أنه كان صديقا حميما لابن عبد ربه، ثم انقلبت المودة إلى خصام، وتهاجيا بعد عمر من المدائح والمودة.

(١) انظر عنه المغرب ج ١ ص ١٣٤ ومراجعته السابق ج ١ ص ١١١ والمقرئ ج ٢ ص ١٩٩ الخ

أبن عبد ربه : (٢٤٦ - ٣٢٨)

ولابد ، على كل حال ، من وقفة أمام أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد" ، ذلك الكتاب الموسوعى الضخم الذى صنع شهرته ، وربما قلل من شأنه باعتباره شاعرا ، ذلك أنه وجه معظم الاهتمام إلى هذا التصنيف البارع ، فضاء ابن عبد ربه الشاعر وسط ذلك .

وقد اختلفت الآراء حول هذا الشعر ، فقد عده د. أحمد ضيف من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا عن خلقوا شعراء" وكلام الأستاذ أحمد أمين عنه يشبه ذلك ، فقد اعتبره مجرد صدى للمشاركة ، وأنه كان "يجتهد ما استطاع أن يأخذ معانيهم ويزيد عليها ويختار فى كل نوع من الشعر إماما من المشاركة، فطورا إمامه صريع الغوانى، وطورا أبو العتاهية وغيرهم ، ولم يتحرر تحررا كافيا ، ولم يصنع الى قلبه قط" (١) بينما رفع آخرون من قدر شعره، ورأوا فى كثير مما وصل الينا منه صدقا فى الإحساس وقوة فى التعبير وقد كان القدماء يرون فيه "حجة الأدب، وان له شعرا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهاه" (٢) وعده ابن سعيد "إمام أهل الأدب بالمائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغرب كله" (٣) وذكر الحميدى أن ديوانه يقع فى نيف وعشرين جزءا من جملة ما جمع للحكم بن عبدالله ،

(١) راجع أحمد ضيف فى : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩١ ، وأحمد أمين : ظهر الإسلام ، ١٢٤/٣ ، ويراجع بصورة خاصة: د. أحمد هيكى فى : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٩

(٢) ابن خاقان : قلاتد العقبان

(٣) عنوان المرقصات والمطربات ٥٦

لكن هذا الديوان ضاع مع ماتيدده من تراث أهل الأندلس، ولم تبق منه إلا
أشتات متفرقات ، جمعت فيما أطلق عليه اسم "ديوان"^(١) وإذا أسقطنا
المنظومات (فى التاريخ وفى العروض) فإن الشعر المتبقى لا يكاد يتجاوز الألف
بيت ومنها قوله :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يابى عليك الله والقدر
مازلت أبكى حذار البين من كمد
حتى رثى لى فيك الريح والمطر
يابرده من حيا مزن على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقوله :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا
ورشا بتقطيع القلوب وفيقا

(١) نشره محمد التوحيج بعنوان : ديوان ابن عبد ربه ، بيروت ١٩٧٧ ، كما نشره د.
محمد رضوان الداية فى بيروت أيضا سنة ١٩٧٩ ، وكان شعر ابن عبد ربه : جمع
وتحقيق ودراسة موضوعا لرسالة ماجستير أعدها بجامعة القاهرة موسى رزق ربحان ،
سنة ١٩٧١ ، وراجع عن ابن عبد ربه دراسة د. جيراثيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ط
٢ ، بيروت ١٩٧٩ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
ما بال قلبك لا يكون رقيقا؟

وعارض قصيدة صريع الغواني:

أديرا على الراح لاتشربا قبلى
ولا تطلبيا من عند قاتلتى ذحلى

بأبيات من جيد ما قال ، أولها:

أتقتلنى ظلما ولجحدنى قتلى
وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذحلى لىس بى غير شادن
بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغار على قلبى فلما أتيته
أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت برد سلامها
ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جنتها صدت حياء بوجهها
فتهجرنى هجرا أحلى من الوصل

وإن حكمت جارت على بحكمها

ولكن ذاك الجور أشهى من العدل!

فلما تقدمت السن بابن عبد ربه عزف عن هذا الضرب من الشعر الغزلي،
وكتب عددا من "المحصات" وهي قصائد في الزهد يكفر بها عما كان قد قاله
في الغزل والخمريات والمجون، ومن هذا النمط قوله :

أتلهو بين باطية وزير

وأنت من الهلاك على شفير

فيا من غره أمل طويل

يؤديه إلى أجل قصير

أتفرح والمنية كل يوم

تريك مكان قبرك في القبور

هي الدنيا فإن سرتك يوما

فإن الحزن عاقبة الغرور

ستسلب كل ما جمعت منها

كعارية ترد إلى المعير

وتعتاض اليقين من التظنى

ودار الحق من دار الغرور

ولنا أن نسلم بأن ابن عبدربه كان غزير الشعر ، متنوع الموضوعات وقد
عاش الرجل قرابة ثمانين سنة، شَرقت فيها شهرته وغرّبت حتى إن الفتح بن
خاقان في "مطمح الأنفس" يسوق نقلا عن أحد الحجاج الأندلسيين (الخطيب أبي
الوليد بن عباد) أنه "حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف، ورأي

أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده فى مسجد عمرو بن العاص ، ففأوضه قليلا ثم قال: انشدنى للمليح الأندلس ، ويعنى ابن عبد ربه فأشده : (يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا) ... فلما أكمل إنشاده استعاده منها ، وقال : يا ابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوا!^١

وليس فيما سلم من ديوان ابن عبد ربه ما يجعله يحتل تلك المكانة المرموقة فى الشعر ، ولعل الرأى الصحيح أن (أسلوبه الشعرى بصفة عامة أصيل سهل التناول إلا أنه غير عميق الفكر ، ولا دقيق الصورة ولا خصب المعانى ، مع نغمة موسيقية وحاسة فنية تعطى الدارس دليلا على وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعرى وتنوع اتجاهاته"^(١) ، والملاحظ أن ابن عبد ربه اكثر من معارضه المشاركة، ولعل هذا من مظاهر المحافظة؛ التى غلبت على آرائه وجعلته يسير فى ركاب مدرسة مسلم بن الوليد وأبى تمام.

ومن غريب الأمر أن اسمه ذكر فى "الذخيرة" وغيرها على اعتبار أنه من السباقين فى اختراع الموشحات ، وهذه قضية تناقش فى غير هذا المكان!

ابن دراج القسطلى (متنبى الأندلس) ٣٤٧هـ - ٤٢١هـ :

هو أحمد بن محمد بن العاصى ... ابن دراج ، وكنيته أبو عمر ، ينحدر من أسرة بريرية (من صنهاجة) ذات رئاسة فى قسطلية، إلى حد أن هذه البلدة التى تقع الآن فى البرتغال تذكر أحيانا باسم قسطلية دراج، ويشير د. محمود على مكى - ناشر ديوان ابن دراج ، وعليه عوكلنا فى هذه الصفحات ، إلى أن

(١) المطمح (ط. شوابكة) ص ٢٧٣

(٢) ع. زمامة: الشاعر الأندلسى ابن عبد ربه القرطبى فى : المورد المجلد السابع ١٩٧٧

أثر هذه "البربرية" غير واضح فى حياة ابن دراج أو فى شعره ، وتعليل ذلك أن آل ابن دراج دخلوا الأندلس مع الفتح فتأقلموا تماما حتى أصبحوا أندلسيين خالصين ، ولعل من أدلة ذلك أن ابن دراج لم يجد غضاضة فى أن يهجو الزعيم البربرى زبرى بن عطية المغراوي عندما أعلن العصيان ضد المنصور العامري، وإذا كانت جل مدائحه انصرفت للمنصور وأبنائه فإن شعره بعدهم اتجه الي هؤلاء الملوك الذين كانوا علي عدااء مع البربر ، ولم يقصد أمراء البربر زمن ملوك الطوائف باستثناء الحمدونيين .

ولا يعرف شئ ذويال عن فترة النشأة فى حياة ابن دراج، وأول شعر معروف له قاله وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، فى مدح المنصور العامري، أى سنة ٣٨٢ وهى حافلة بالنضج والحوية، مما يدل على أنها مسبوقة بعشرات القصائد ، وأولها:

أضاء لها فجر النهى فنهاها

عن الدنف المضى بحر هواها

وضللها صبح جلا ليلة الدجي

وقد كان يهديها إلى دجاها

والقصيدة ، كما يذكر الحميدى، معارضة لأبى العلاء صاعد البغدادى، الشاعر اللغوى الذى هاجر إلى الأندلس ، وهى ، كما مر، فى المديح، وهكذا يأتى معظم محتوى ديوان ابن دراج ، الذى لقبه الأندلسيون بـ "متنبى الأندلس" لا لأنه شاعر مدح فحسب، بل لأنه أيضاً شاعر فحل ينتمى إلى تلك المدرسة العريقة التى انبتت فى المشرق شعراء من طراز أبى تمام والمتنبى ، وأبدعت فى المغرب تلك الشاعرية الفذة التى أعطت جل طاقتها لفن المديح.

لكن الموضوع المدحى ، عند ابن دراج، لا يعدو أن يكون مجرد موضوع أو زاوية ضمن زوايا أخرى وعلى سبيل المثال فإن القصيدة السابقة تقع فى

ثلاثة وخمسين بيتا (وابن دراج هو أول شاعر أندلسى يصل إلينا ديوانه ،
وليس منتخبات منه) استأثر منه المدح بثلاثة عشر بيتا بينما حفلت بوصف
أحوال الترحال وأهواله والحديث عن هموم الذات وآلام البعاد عن الأهل
والأحباب :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه

نفوسا شجاني بينها وشجاها

وربة خدر كالجمان دموعها

عزيز على قلبى شطوط نواها

وينت ثمان مايزال يروعنى

على النأى تذكارى خفوق حشاها

وموقفها والبين قد جد جده

منوطا بحبلى عاتقى يداها

حتى يصل إلى مقطع المديح ليسكب فيه كله ما استطاع أن يضيفه على

المنصور العامرى من سجايا :

لدى ملك إحدى لواظ طرفه

بعين الرضا حسب المنى وكفاها

هو الحاجب المنصور والملك الذى

سعى فتعالى جده فتناهى

سليل الملوك الصيد من سرو حمير

توسط فى الأحساب سمك ذراها

لباب معاليها وإنسان عينها

ويدر دياجيها وشمس ضحاها

وأنت تقلب فى ديوانه الضخم الذى يقع فى أكثر من ستمائة صفحة فلا
تكاد تظفر بغير المدائح أما الغزل فهناك مقطعات قليلة منها قوله فىمن خانت
عهده :

سأمنع قلبى أن يحن اليك
وأنهى دموعى أن تفيض عليك
أغدرا ولم أغدر وخونا ولم أحن
لقد ضاع لى صدق الرفاء لديك
بفعلك عيب الحسن عندى وإن غدت
مهابة النقا والشمس مشتبهيك
أصد بوجهى عن سنا الشما طالعا
لأن صار منسوب الصفات إليك
وأصرف عن ذكراك سمعى ومنطقى
ولو نازعتنيها حمامة أيك
ولو عن لى ظبى الفلا لاجتنبته
لتمثال عينيك وسالفتيك

وهذه القطعة مما قاله فى زمن الصبا، أما بعد ذلك العهد فإن غزله لا ينم
عن فورة مشاعر، والخلاصة أن الغزل نادر فى ديوانه، وعادة ما يأتى فى صدر
القصائد مثل قوله:

غرام ولاشكوى وعتب ولاعتبى
وشوق ولا لقايا وصبر ولا عقبى
وكم حن معشوق وأعتب عاشق
وقلبك ما أقسى وقلبى ما أصبى

سأصدع أحناء الضلوع بزفرة
تطير إليك القلب لو أن لى قلبا
وأسبل آماق الدموع بعبرة
وإن حرمت منك المودة فى القربى^(١)
وقد تأتى مقطعات فى الوصف (ممزوجة عادة بالمديح) مثل قوله فى
الترجس:

شكلان من راح وروضة نرجس
يتنازعان الشبه وسط المجلس
متباهيين تلونا بتلون
متباريين تنفسا بتنفس
لكن هذى بين أحشاء الفتى
نار وهذا جنة للأنفس
فكانها من حد سيفك تلتظى
وكأنه من طيب خلقك يكتسى

ولكن شاعرية ابن دراج فى مجموع شعره المدحى أقوى مما تتبدى فى هذه
المقطوعات الوصفية والتي لا يستبعد أن تكون قد قيلت ارتجالا، ومن ثم خلت
من العمق ومن أصالة التعبير^(٢)

ولكن كل هذه موضوعات ثانوية عنده، لأن الرجل قد فنى فى شعر

(١) راجع أيضا مرثية أخرى فى الديوان ص ١١٩

(٢) راجع الديوان ص ٣٥ وما بعدها (فى روضة سوسن، فى البهار، فى النرجس ، فى
الخيبرى ، فى الورد ، فى السوسن وفى النيلوفر)

المديح إلى أبعد مدى ، ولولا أن لهذه المدائح قيمة تاريخية كبرى لضعف شأن ابن دراج، إذ إن كثيرا منها اتصل ببطولات المنصور العامري وحملاته الموفقة على ممالك إسبانيا النصرانية، وأرخ لهذه الفترة العجيبة من عمر "قرطبة" حاضرة الخلافة، وهي تتحول من حاضرة لدولة إسلامية مترامية الأطراف إلى مجرد إمارة صغيرة بعد أن انقرط عقد الأندلس، وأقبل ملوك "الطوائف" يصلون ويجولون ... وأما من حيث الفن فيحسبنا أن نشير الى قوله :

دعى غزوات المستضام تسيير

فتنجد فى عرض الفلا وتغور

لعل بما أشجاك من لوعة النوى

يعز ذليل أو يفك أسير

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى

وأن بيوت العاجزين قبور

ولم تزجرى طير السرى بحروفها

فتنبئك إن/فهى سرور

تخوفنى طول السفار وإنه

لتقبيل كف العامرى سفير

دعيني أرد ماء الفاوژ آجنا

إلى حيث ماء المكرمات نمير

فإن خطيرات المهالك ضمن

لراكبها أن الجزاء خطير

وهى قصيدة نسجت على غرار قوله أبى نواس

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فكيف جاز لابن دراج أن يعارض واحدة من أجمل ما كتب في الشعر
العربي علي مر العصور^(١)، الواقع أن شاعرنا حاول أن يقدم " تفصيلات"
لموقف الوداع، لم يتطرق إليها أبو نواس، فحالفه التوفيق وهو يصف فراق
الزوجة وطفله الوليد واعنصار الوجدان ولوعة الأسي :

ولما تدانت للوداع وقد هفا

بصبري منها أنة وزفير

تناشدني عهد المودة والهوى

وفي المهدي مبعوم النداء صغير

عبيّ بمرجوع الخطاب ولفظه

بموقع أهواء النفوس خبير

وطار جناح الشوق بي وهفت بها

جوانح من ذعر الفراق تطير

عصيت شفيح النفس فيه وقادني

رواح لتدآب السرى ويكور

واستطاع ابن دراج في بعض مقاطع هذه الرائية أن يصل إلى درجة رفيعة
من إضفاء الحيوية على الأبيات وتقديم لوحات فريدة في صفائها وروعة
صورها:

ولو بصرت بي والسرى جل عزمتي

وجرسى لجنان الفلاة سمير

(١) يذكر ابن خلكان في الزفيات ج ١ ص ١٣٥ ط إحصان عباس أن "المنصور بن أبي
عامر أمره أن يعارض قصيدة أبي نواس..".

وأعتسف المومة فى غسق الدجى
وللأسد فى غيل الغياض زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها
كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت لمجوم القطب حتى كأنها
كؤوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها
على مفرق الليل البهيم قتيير
وثاقب عزمى والظلام مروع
وقد غض أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى
وأنى بعطف العامرى جدير

والقصيدة طويلة نسبيا (وعادة ما يطيل ابن دراج فى مدائحه التى يتجاوز بعضها المائة بيت) ، ومع ذلك فإنها لوحات تترى وآهات تتفجر عن صدر مكلوم ومعان تنساب فى رصانة وعمق فترسم صورة لملك اجتمعت فيه كل صفات النبيل والفروسية والعدل والجود ، وتخلب عبارة ابن دراج اللب بمتانة سبكها واستيعابها الدقيق للمعنى ، وقد يستعمل فيها الغريب أحيانا - على نحو ما كان يصنع أبو تمام أو المتنبى - لكنه الغريب الذى يتفق والمعنى الذى يريد ، مثل قوله فى وصف أهوال الترحال:

ولو شاهدتنى والصواخذ تلتظى
على ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات إذا سطا
على حر وجهي والأصبل هجير
وأستنشق النكباء وهي بوارح
وأستوطن الرمضاء وهي تفور
وللموت في عيش الجبان تلون
وللذعر في سمع الجريء صفير
ليان لها أنى من الضيم جازع
وأنى على مض الخطوب صبور

والحق أن ديوان ابن دراج يأتي حافلا بأمثال هذه الأبيات التي بلغت ذروة التناسق بين المعنى والأداء مما جعله يعد من بين "الشعراء الفحول"، ونقل ابن بسام في "الذخيرة" عن ابن حيان أنه كان؛ سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين " كما نقل عن ابن شهيد قوله "والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وماتراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بخره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه في الوصف وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره"^(١) وهذا قليل من كثير مما قيل في هذا الشاعر المبدع الكبير^(٢)

(١) الذخيرة ط. إحصان عباس ج١ من القسم الاول ص ٦١
(٢) راجع عنه أيضا : المجذوة ١.٢ ، والمغرب ج ٢ ص ٦٠ بيمة الدهر ج٢ ص ١.٤ ،
الوافى ج٨ ص ٤٩ الخ

يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمر)،

هذا شاعر أندلسى من طبقة الفحول ، أوتى فى زمنه القسط الأوفر من الشهرة، ولكنه - فى عصرنا الحديث - لم ينل إلا مكانة ثانوية بسبب ضياع ديوانه، أو بالأحرى دواوينه، بحسب ماسنرى ...

وفى اسم "الرمادى" آراء كبيرة، لجعلها فيما يأتى:

- يقول ابن بشكوال فى "الصلة":

"كان يلقب أبى جنيش فنقل إلى الرمادى"

- ويقول الحميدى إن المرجح أن أحد آبائه من رمادة، موضع بالمغرب، وأيد ابن خلكان هذا الرأى ونقل عن باقوت فى "المشترك وضعا والمختلف صقعا" أن هناك عشرة مواضع تسمى الرمادة، منها رمادة المغرب التى ينسب لها شاعرنا

- أما ابن سعيد فنقل عن الحجارى أن الرمادى من قرى شلب

- وقد ذكر مؤرخ الأندلس ابن حيان اسمه فى أكثر من موضع ، وسماه فى مرة الشاعر "الرمادى" (وفى بعض) آخر: يوسف بن هارون البطلبيوسى، الشاعر المعروف بأبى جنيش واختلفوا فى معنى (أبى جنيش) "وفى رأى جونثالث (بلانثيا، مؤلف "تاريخ الفكر الأندلسى"، أن الرمادى) لا تعدو أن تكون الصيغة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة (أبو جنيش) إذ إن الجنيش Cenisa بالاسبانية تعنى الرماد وكان نعتة بهذه اللغة يكون El-Cenicento أما هنرى بيبيرس فرجع أن يكون منشأ التسمية امتهانة تجارة الرماد.

- مما يضاف إلى مشكلة الاسم قول ابن سناء الملك عن الخرجة فى

الموشحة : وقد تكون المخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمى سفسا. إذا نفظيا ورماديا زطيا" وفسر "الرمادى" هنا بالشعبى ...
- ومع هذا فإنه فالتفق عليه أن شاعرنا عربى الأرومة، إذ إنه ينسب إلى كندة...

وقد ولد الرمادى فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وتوفى سنة ٤٠٣ هـ أى أنه عاصر فترة اضطراب كيان الدولة الأموية بالأندلس ، ثم ارتقائها للذروة بعد أن دان الأمر لعبد الرحمن الناصر ، وقضى على الفتن وعم الأمن والرخاء ، وقد شرع الناصر - سنة ٣٢٥ فى بناء قصر "الزهراء" على مقربة من قرطبة، وفى زمنه وفد أبو علي القالى الى الأندلس ، سنة ٣٠٥ هـ فاحتفى به أهل البلاد أيما احتفاء ، وكتب الرمادى فيه واحدة من أشهر قصائده استهلها بمقطع غزلى يقول فيه :

من حاكم بينى وبين عدولى
الشجو شجوى والعويل عويلى
أقصر فما دين الهوى كفر ولا
أعتد لومك لى من التنزيل
عجبا لقوم لم تكن أذهانهم
لهوى ولا أجسادهم لنحول
دقت معانى الحب عن أفهامهم
فتأولوه بأقبح التأويل
فى أى جارحة أصون معذبى
سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت فى عينى فشم مدامعى
أر قلت فى قلبى فشم غليلى

لكن جعلت له المسامح مسكنا

وحجبتة عن عدل كل عدول

وبعد هذا المقطع الغزلى يأتى مقطع آخر فى الحديث عن الترحال ووصف
جواده والحديث عن الصيد والرياض ونحو ذلك مما ترددت أصداؤه طويلا فى
الشعر العربى حتى يفضى به القول إلى القالى:

قسه إلى الأعراب تعلم أنه

أولى من الأعراب بالفضل

حازت قبائلهم لغات جمعت

فيهم وحاز لغات كل قبيل

فالشرق خال بعده، فكأنما

نزل الخراب بربعه المأهول

جمعوا بغيبته وموت شيوخه

عنهم ولما يظفروا ببديل

مذ جاءهم وهم بليل همومهم

منه فصاروا فى دجى موصول

فكانه شمس بدت فى غرينا

وتغربت فى شرقهم بأقول

ياسيدى هذا ثنائى لم أقل

زورا ولا عرضت بالتنويل

من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ

لم أرج غير القرب فى تنويلى

ولاغرابة ، والقصيدة تتدفق بهذه القوة الآسرة الساحرة ، أن توليها

المصادر قسطا موفورا من الاهتمام، فنرى اقتباسات منها فى عشرات الكتب المشرقية مثل اليتيمة والوفيات والوفى ومسالك الأمصار والشذرات ، وفى العديد من المؤلفات والمجموعات الأندلسية والمغربية مثل المطمح والمعجب والنفح ورفع الحجب^(١) الخ ..

ومما يذكر عن مرحلة شباب الرمادى أنه كان عكوكا على اللهو ، وسوف يقوده ذلك إلى السجن - فى عهد الحكم (المنتصر) - وفى "المقتبس" أنهم قبضوا على كثير من المجاهرين بالمجون وأودعوا السجن "فكان بمن ألحف الطلب لهم والبحث عليه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاعر المعروف بأبى جنيش زعيمهم، غاب مدة والطلب له حثيث، والنداء عليه متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تطيقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعيد مستبسلا لحتفه"

وفى بقية الخبر أن الشاعر اتجه إلى السجن بالزهراء فأسلم نفسه وفى فى محبسه حتى لان له الخليفة فأطلق سراحه بعد أشهر ، وكان ذلك سنة ٣٦١ ، الا أنه لم ينعم بالحرية طويلا إذ سرعان ما قبض عليه ثانية بتهمة الإساءة للخليفة إذ شاع أنه هجاه بقصيدة - أو قصائد - لم يسلم منها إلا بيت يتيم يقول فيه:

يولى ويعزل من يومه

فلا ذا يتم ولا ذا يتم

والمرجح أن مقامه طال فى السجن بدليل ماذكروا من أنه "عمل فى السجن كتابا سماه: كتاب الطير، فى أجزاء ، وكله من شعره، وصف فيه كل

(١) أنظر ملاحظات د. أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٢٩٢ حول هذه القصيدة

طائر معروف ، وذكر خواصه وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام، مستشفعا إلى أبيه في إطلاقه"، وقد ضاع كتاب الطير هذا، كما ضاع ديوان الشاعر ولم يسلم من شعره إلا قدر محدود - نحو مائة - صفحة، (جمعها ماهر زهير جرار) لاتوجد فيه عن الطير إلا بضع مقطوعات ، منها قوله في حمامة:

أذات الطوق في التغريد أشهى

إلى أذنى من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع

بنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا ونحرا

كما خر الفجيع على الضريح^(١)

وبيتان في حمامة هما :

أحمامة فوق الأراكة بينى

بحياة من أبكاك ما أبكاك؟

أما أنا فبكيت من حرق الهوي

وفراق من أهوى . أنت كذاك؟

وأما السجن فإن لدينا له أكثر من نص مما كتبه وهو معزول عن الدنيا ، بعيد عما اعتاد عليه من لهو وخمر ونزق ، منها قصيدته "لك الأمن من شجو يزيد تشوقى"، وفيها يقول:

(١) يضم كتاب التشبيهات ثلاثة عشر بيتا في البازي.

أعيني إن كانت لدمعك فضلة

تثبت صبري ساعة فتدققي

فلو ساعدت قالت أمن قلة الأسي

تبقت دموعي أم من البحر تستقي

وله من غيرها:

نسائلها هلا كفاك نحوله

ونصيته أو دمه وهموله

تكنفه همان : شجو وضبوة

فبلغ واشيه المنى وعذوله

فإن يستين في وجهه هم سجنه

فقد غاب في الأحشاء عنك دخيله

معنى بكتمان الحبيب وحيه

فان يقتل الكتمان فهو قتيله

وقد راعنى سجن فشط ولودنا

من السجن لم يسهل على دخوله

والذى يطالع في شعر الرمادى - أو بالأحرى ماوصل منه - يجد فيه مقطوعات كثيرة في الغزل والخمر ووصف الزهور ومناظر الطبيعة ، ولكنه لا يجد أثرا واضحا لمن اتصل بهم من خلفاء وحجاب وأمرأء وحجاب ونحدثنا كتب التاريخ إنه "كان مختصا بأبى الحسن المصحفى منضويا إليه" كما يقول المراكشى فى "المعجب" ، وقد تمت نكبة المصحفى سنة ٣٦٧هـ وقبض على السلطة غريمه ابن أبى عامر (المنصور العامري) وعندئذ يتحول إليه الرمادى ليصبح من مداحه - كما يقول ابن سعيد - ومع ذلك فإننا لا نملك شيئا مما قاله فى المنصور ،

الذى مر بنا أمر بأسه وحنكته وتفانيه فى الغزو والجهاد، والمراكشى فى "المعجب"
" يتحدث عن هجاء للرمادى فى المنصور (بتأثير من المصحفى) فلما فقد هذا
نفوده تعرض شاعرنا للعقاب والنفى، ثم بدلت العقوبة إلى الاكتفاء بأن نودى
بمقاطعته "فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام
المنصور"

وهذا الخبر ينقضه أن نكبة المصحفى كانت سنة ٣٦٧، فى حين إن
الرمادى امتدت به السن إلى أن شهد الفتنة البربرية، أى أنه عاش سنوات بعد
وفاة المنصور العامرى، ومن غير المتصور أنه عاش منزويا عن الناس كل هذه
المدة .

والدارسون لفن الرمادى يرون أن شعره انصبت فيه "ألوان الحياة
الأندلسية، فشعره وثيقة حضارية هامة، إذ إنه مع تبدل الحياة تبدلت طبيعة
الشعر فالبيئة الأندلسية تمثل أجواء جديدة من الاستسلام والاغراء، وبوجود
طبقة الجوارى والغلمان الصقالبة والبشكنس والنساء الشقراوات تبدلت عواطف
الشعراء، وتعقدت تصورات اللذة، فتعقد تبعاً لذلك التصوير الشعري،
وأصبحت اللذة غاية بذاتها ولم تعد متعة عارضة، فاقترنت بجمال الطبيعة
وبالغناء والموسيقى والخمر . ثم إن الانكسار الحاصل فى الهوية الاجتماعية من
حيث توزع المال والسلطة من جهة، وسلطة الفقهاء من جهة أخرى التى تصطدم
دائماً مع هذه الأجواء الجديدة، كل هذا عمق الانكسار فى الهوية الفردية وولد
الألم الغامر الذى لا يتبله إلا اللذة المتواصلة، فتصبح الحياة فراديس مصطنعة

(١) انظر أيضا مقطوعة قالها فى السجن ص ١٧ من مجموعة شعر الرمادى أولها:

ويلدع قلبى حرقه دونها الجمر

حبيسك من أتلّف الحب قلبه

وأهضاً قصيدته:

فما الخطب أيضاً فى امتناع خياله؟

هبوا أن سجنى مانع من وصاله

يبتدعها الشاعر، فالرمادى جمع فى شعره هذه الأمور ، فهو يمثل التمرد على
الفقهاء من جهة، وهذا التهافت على اللذة من جهة أخرى" (١)

ولا نعرف أى لقب شعرى مشرقى أطلق على الرمادى ، وربما كان أقرب
الأسماء اليه اسم أبى نواس، فقد كان صنوه فى التفننى بالخمير ، وإذا كانت
معظم قصائده فيها قد فقدت فبحسبنا أن قسطا لأبأس به من الرائية "بخطب
الشاريين" قد سلم من الضياع ، وكان الرمادى كتبها عندما فكر الحكم المستنصر
فى استئصال شجرة العنب من الأندلس وأمر بإراقة الخمر والضرب بيد من حديد
على شاربيها ، فراح يتفجع ويتوجع بقوله :

بخطب الشارين بضيق صدرى

وترمضني بليتهم لعمري

وهل هم غير عشاق أصيبوا

يفقد حياتي ومنوا بهجر

وضمنها بيت العرجى الشهير :

"أضاعوني وأى فتى أضاعوا

ليوم كرهة وسداد ثغر!"

وأىضا من الظواهر "النواسية" - أو فنقل الأبيقورية - عنده ذلك التفانى
فى عشق الحياة والابتهاج بالطبيعة من أيضا ذلك التعلق بالغللمان، على نحو
مايكشف عنه قوله فى غلام ألثغ:

لا الراء تطمع فى الوصال ولا أنا

الهجر يجمعنا فنحن سواء

(١) شعر الرمادى ، ص ٤١

فاذا خلوت كتبتها فى راحتى
ويكيت منتحبا أنا والراءء
والإكثار من الحديث عن مفاتن النساء . ولكن من غير فحش وأحاديث
الهوى . مثل قوله :

وإنى لأغضى الطرف عنك جلالة
وخوفا على خديك من لحظاتى
ولو أننى أهملت عينى بأن ترى
سناك لحالت دونها عبراتى
رأيت وشاة الكاشحين أباعدا
ولكن دمعى من عديد وشاتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن
اعنيك فى بشى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنيتى
إذا حلت عنم فى يديه وفاتى

والنصوص التى مرت تكشف عن خصائص الرمادى ، الذى كان ينتمى
بدوره لمدرسة المحدثين ، إلا أنه كان فى الوقت ذاته بصيرا بالأدوات الفنية
التقليدية على نحو ما تكشف عنها مدحته فى أبى على القالى ، حتى إذا مامال
إلى موضوعات الوصف والتعبير عن الذات لجأ إلى الجملة البسيطة التى
تكسب جمالها من حيوية الصور ، والحق أن الرمادى لم يكن يمعن فى الغوص
تنقيبا - متعمدا - عن المعنى الجديد بل كان يتدفق هذا تدفقا طيعا بين
يديه ، فشاعرنا كان شاعر طبع ، إلا أنه كان يحرص فى الوقت ذاته على أن

يجعل عبارته مشرقة وصوره متألقة، لا يحاكي فيها أحدا

ويلحظ القارئ في كثير من مقطوعات الرمادى مواقف ذات أبعاد درامية
مجددة مركزة على نحو يذكر بمنهج الغزال ، إلا أن الرمادى كان أكثر صقلا
لعبارته وتجويد الصورة ، من قبيل قوله:

لما بدا فى لأزور

دى الحرير وقد بهر

كبرت من فرط الجمال

ل وقلت : ما هذا بشر

فأجابنى لا تنكروا

ثوب السماء على القمر !

والخلاصة إن إبداع النص يتمثل عند الرمادى فى "الصورة" بينما يتألق
عند الغزال فى "الموقف" ، وبينهما ولا شك أراضٍ قوامها غلبة الروح "الأندلسية"
الفنية على شعرهما :

عصر ملوك الطوائف
(من شعراء القرن الخامس الهجرى)
ابن زيدون

إذا ذكرت الأندلس فإن صوراً كثيرة تتداعى إلى النفس من خلال ذكراها، يأتي من بينها ولا شك اسم الشاعر العبقري ابن زيدون .

وقد ارتبط اسم هذا الشاعر بعصر ملوك الطوائف خاصة فى قرطبة وإشبيلية، وكان طرفاً فيما جدّ على العصر من أحداث متلاحقة انتهت بسقوط الخلافة الأموية واختيار أهل قرطبة لأبى الحزم بن جهور أميراً أو حاكماً لقرطبة وما حولها، بينما استولى بنو عباد على إشبيلية، واشتعلت الفتى بين الأقاليم وازداد نفوذ النصارى وضغطهم من كل اتجاه .

وشاعرنا (أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون) ينحدر من بنى مخزوم ، وهم بطن من لوى بن غالب، أى أنه كان قرش العنصر، وكان لأسرته شأن فى قرطبة، على نحو ما ذكر ابن حيان من أنه كان "من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة"، والثابت أن مولده كان بالرصافة، على مقربة من قرطبة، سنة ٣٩٤هـ، وأنه نشأ محاطاً بالرعاية والتثقيف من قبل أبيه ثم أساتذة ذلك العصر ومنهم أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الذى بوصف بأنه كان "رجلاً جيد الدين ، حسن العقل، متصاوفاً ، لين العريكة، واسع الخلق، مع نبه وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب على حد تعبير ابن بشكوال صاحب الصلة .

وكان ابن زيدون^(١) فى الثامنة والعشرين من عمره عندما تم اتفاق أهل قرطبة على زعامة أبى الحزم بن جمهور ، والمرجح أنه قام بنصيب وافر فى هذا الأمر حتى أن الفتح بن خاقان يصفه بأنه "زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجمهورية"، وهيات له هذه الزعامة أن يحتل منصب الوزارة ، وقد نقل ابن بسام عن أبى مروان بن حيان قوله :

"وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جمهور، من رجال دولته فقال: ونوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف والشاعر البديع الوصف والرصف أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة النبهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلطة وقوة العارضة والافتتان فى المعرفة . وقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فاحسن التصرف فى ذلك، وغلب على قلوب الملوك"^(٢)

ومع ذلك فإن أبا الحزم بن جمهور كان تخوف فى قرارة نفسه من ابن زيدون ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، كان ينقم عليه انغماسه فى حياة اللهو واقتران اسمه باسم ولادة بنت المستكفى (وسنعود إلى ذلك بعد قليل) من خلال قصة حب عاصفة ودفعه طبعه الحاد، وثقته المفرطة فى نفسه، لأن يحط من قدر ابن القلاس وابن عبيدوس (منافسه فى حب ولادة) وكان العصر عصر فتن وانقلابات ومن ثم دبرت له تهمة اغتصاب عقار وحوكم محاكمة ظالمة أفضت به على عجلة إلى السجن ، حيث مكث فيه قرابة خمسمائة يوم . ويرى بعض

(١) راجع عنه ابن بسام فى الذخيرة وكتاب ابن نباتة : سرح العيون والصفدى فى : تمام المتون ، وابن سعيد فى : المغرب (ج ١ ص ٦٣) والحميدى فى الجذوة ص ١٢١ وابن خاقان فى القلائد ص ٧٠ وابن دحية فى المطرب ص ١٦٦ الخ ..

وراجع مقدمة ديوانه - نشر على عبد العظيم - القاهرة ودراسة (وهى فى الأصل رسالة للماجستير) نشرت بالقاهرة سنة ١٩٥٥ فى ٥٨٧ ص فضلا عن دراسات أخرى متفرقة (٢) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول ١ ط إحصان عباس) ص ٣٣٧

الباحثين أن الشاعر أودع السجن مرتين، لكن الرأي الصائب أنه "لم يسجن إلا مرة واحدة في عهد أبي الحزم بن جهور بعد نقضبيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١ هـ ، وبعد أن تولى ابن المكوي القضاء - وهو الذي نيظ به أمر محاكمته - لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢ هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته الى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد الذي توفي لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣ هـ ، ومن هنا نستطيع ان نحزم بان الشاعر سجن في الفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ (١).

وقد فر ابن زيدون من السجن بقرطبة، واتجه إلى إشبيلية لاثنا بآل ابن عباد، أعداء ابن جهور، وأمدته فترة السجن ثم الاختفاء والهرب بطائفة من فرائد ماكتب في السجن والاعتراب والاحساس بالضياح ، مثل قصيدته :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحي

وفيها يتحدث عن قرطبة وأحيائها ومعالمها حديث المتيم المشوق، حتى ينتهي إلى الزهراء فيلهج لسانه :

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح

تقصي تنائبيها مدامعه نزحسا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها

فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه

إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

(١) على عبد العظيم ، مقدمة ديوان ابن زيدان ، ص ٤٣

وكذلك أرجوزته :

يادمع صب ماشئت أن تصوبا
ويافؤادى آن أن تذوبا
إن الرزايا أصبحت ضروبا
لم أر لى فى أهلها ضربيا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
فى الغرب إذ رحى به غربيا

وأبضا هذه المقطوعة التى كتبها على غرار قصيدة للمتنبى واتخذ من
مطلعها "خاتمة" لأبياته:

هل تذكرون غربيا عاده شجن
- من ذكركم - وجفا أجفانه الوسن
يخفى لواعجه والشوق يفضحه
فقد تسارى - لديه - السر والعلن
ياويلتاه ، أبقى فى جوانحه
فؤاده ، وهو بالأطلال مرتهن
وأرق العين -والظلماء عاكفة-
ورقاء قد شفها - إذ شفنى - حزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكثها
ويات يهفو ارتياحا بيننا الغصن
ياهل أجالس أقواما أحبهم
كنا وكانوا - على عهد - فقد ضغنوا

أو تحفظون عهودا لا أضيّعها
إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عاد لكم عيد فرب فتى
بالشوق قد عادته من ذكركم حزن
وأفردته الليالى من أحبته
قبات ينشدها مما جنى الزمن:
" بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن "

ولم يكف ابن زيدون طيلة هذه المدة عن محاولة التوسل لابن جهور لكى يعفو عنه ، حتى إذا ما مات أبو الحزم وتولى من بعده ابنه أبو الوليد تبذل الحال، إذ كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين منذ أمد بعيد، وهكذا جاءت العودة المظفرة إلي قرطبة "ورفع - أبو الوليد - مكانته ، ونوه به ، وأسنى خطته واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، وبذا يمكن القول بأن ابن زيدون أصبح - مرة أخرى - " وزير خارجية" قرطبة والمستشار الأول لأميرها الجديدة ولم يخل الأمر من أزمات توالى بين الرجلين ، بفعل المؤامرات والأحقاد وتقلب النفوس وهذا كله سيدفع بالشاعر إلى الرحيل مرة ثانية إلى إشبيلية، واستقبل من أميرها الداهية المعتضد بن عباد أحسن استقبال، وأصبح من وزرائه المقربين ومستشاريه الأثيرين، وتلقب به "ذى الوزارتين" كناية عن قيمه بمهام المستشار والوزير ثم استطاع بعد ذلك أن يستحوذ على منصب "الكتابة" الذى أتاح له الاطلاع على كل أسرار الدولة فكانه أصبح - بتعبير العصر الحديث - رئيس الوزراء فى إشبيلية

وكانت فى المعتضد غلظة وسرعة فتك وكثرة تقلب ، ومع ذلك نجح ابن زيدون فى أن ينجو من بطشه ويحافظ على مكانته ويتخلص من مناوئيه - مثل ابن حصن كاتب المعتضد ، وأيضاً ابن عبد البر .

ثم آل عرش إشبيلية للمعتضد سنة ٤٦١ ، وكان شاعراً بل وتلميذا لابن زيدون ، ولذا لم تفلح كل المحاولات التى سعت لإحداث الواقعة بينهما ، بل ان تطور الأمور فى الأندلس زاد من التقارب بين الرجلين ، إذ تطلع المعتضد للاستيلاء على قرطبة ومن أدرى بقرطبة وأحوالها من ابن زيدون ؟ ، حتى إذا مات تحقق النصر ازداد شأن الشاعر عند المعتضد بن عباد ، خاصة وأن أهل قرطبة كانوا لا يعصون له أمراً ، ويرون فيه "زعيمهم الروحى" ، والمعبر عن أمانيتهم ومجدهم وكيانهم .

ثم وقعت الفتنة فى إشبيلية ، والمعتضد فى قرطبة، فسعى لآخماها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش، لما كان يعهده فيه من ذكاء وفطنة ، وما كان يعرفه من حب أهل إشبيلية له ، على أن سفر ابن زيدون كان مكيدة من طرف خصوم الشاعر - وعلى رأسهم ابن مرتين قائد الجيوش فى قرطبة والوزير ابن عمار - ليخلوا لهم الجو هناك ، ويتخلصوا من الرجل الذى كان يحظى بأعلى مكانة عند المعتضد وعند أهل المدينة.

وإذا كان جيوش المعتضد قد نجحت فى استرداد إشبيلية ، فإن الوزير الشاعر كان قد أجهد بفعل الشبخوخة وكثرة ما بذل من جهد، ومن ثم يودع الحياة بعد ذلك بزمن وجيز - فى رجب سنة ٤٦٣ هـ ، وكان لموته رنة أسي فى نفوس الناس بالأندلس، خاصة فى مدينته قرطبة .

ولادة وابن زيدون :

إن لقصة الحب العاصف بين ابن زيدون وولادة أثرا عميقا فى حياة الشاعر وفى آثاره الأدبية ، ومن ثم نتحدث عنها هنا على حدة ، خاصة وأنها شغلت الدارسين والأدباء فى القديم والحديث وخلفت أصداء شبيهة بما كان من حكايات وأساطير حول عنتر وعبله، وليلى والمجنون ، وجميل ويثينة وكثير وعزة الخ

أما ابن زيدون فقد عرفنا شيئا من أمره : شاعرا ووزيرا ورجل دولة من الطراز الأول ، وشخصية اجتماعية مرموقة فتن بها أهل قرطبة ، ورأوا فيها تجسيما حيا لكل مالمدينتهم العريقة من حضارة و "ارستوقراطية" واعتداد بالذات وطموح وإقبال على الحياة .

وأما هى : ولادة ، فإنها أميرة وابنة خليفة . وإن كان أبوها عادة مايوصف بأنه ساقط الهممة دنىء النفس ، وهو أحد الذين أسهموا فى القضاء على البيت الأموى بطيشه وضعف همته وعكوفه على الشهوات، وكانت ولادة ، على النقيض منه ، مشهورة بأنها - على حد تعبير ابن بسام :-

"كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لآحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظر والنثر .. إلى سهولة حجابها، وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب^(١) لكن ابن بسام

(١) الذخيرة (ط. إحسان عباس) المجلد الثانى من القسم الزول، ص ٤٢٩ ومن الأعمال
|| نية والمسرحية حول الموضوع مسرحية لإبراهيم الأحذب وفصل قصير قمبلى لأحمد رامى بعنوان: غرام الشعراء . ومسرحية شعرية لعلى عبد العظيم بعنوان : ولادة وأخرى لحسين سراج (غرام ولادة) وفاروق جويده (الوزير العاشق) ونذير العظيمة (سيزيف) ورواية نثرية لعلى الجارم :هاتف من الأندلس، الخ ..

لا يكتفى بهذا الجانب "طاهر الأثواب" بل يعرج على كونها "اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها - كتبت - زعموا - على أحد عاتقى ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشى مشيتي وأتبه تبيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى

وأعطى قبلتى من يشتهيها

وفى كتب الأدب: الأندلسى ، وعلي رأسها "الذخيرة" أطراف من حكاية الحب التى جمعت بينهما ، وكان ذلك أيام شباب الشاعر وفى فترة إقبال الحياة عليه ، ووفقا لروايته فإنها هى التى كتبت له :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى

فإنى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك مالوكان للبدر مابدا

وبالليل ماأدجى وبالنجم لم يسر

وأنه أنشدها فى إثر اللقاء مقطوعة من أربعة أبيات يقول فيها :

ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره مااستودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلکم

بت أشکو قصر الليل معک

والأبيات ترد بالفعل فى الديوان ، ولكنها ليست بالضرورة مما قيل فى أعقاب "اللقاء الأول " كما قد يوحى نص "الذخيرة" ، والمهم أننا نجد عنده تعلقا "من نوع ما" بولادة ، يرتدى أحيانا قناع العذرية ، ويجمع أحيانا جموحا حسيا ، وكان يقع بينهما ما يقع بين المحبين من غيرة وخصام وقطيعة أيضا ، وقد تحركت الغيرة فى نفس ابن زيدون ، عندما وجد أن غريمه ابن عبدوس يزداد منها تقريبا ومودة ، فعمد الشاعر إلى هجائه بالرسالة الهزلية؛ وبعث بالنص لولادة كما هجا غريمه ابن القلاس بأقذع الهجاء ، ولم يستطع مع ذلك أن يجعلها تؤثره بمشاعرها (وفى الذخيرة أنها حنقت عليه لأنها توهمت أنه يميل إلى جاريتها عتية) ثم تطور الحال به إلى أن سجن ، (ولعل لابن عبدوس يدا فى مسألة السجن هذه) وفر منه إلى إشبيلية ، حيث بعث إليها بقصيدته الفريدة الغربية:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هلا وقد حان صبح البين صبحنا

حين فقام بنا للى ناعينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم

حزنا مع الدهر لايبلى وبيلينا

أن الزمان الذى مازال يضحكنا

أنسا بقريهم قد عاد بيكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نغص فقال الدهر آمينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

والقصيدة تضى كلها على هذا النمط العذب الرقيق، (الذي يذكر بقصائد الحب الخالدة مثل لامارتين فى بحيرته وغير ذلك من روائع الشعر "الرومانتيكى") وفيها دلائل حية على صدق الشاعر ، ومع ذلك فإن قصة الحب هذه مألوفة أن تهاوت لأسباب أفاضت فيها كتب التاريخ والأدب ، من أهمها أن ولادة كانت مريضة نفسيا ، وأنها كانت تعاني من ميل حاد لتعذيب الآخرين - وهو ما يعرف الآن بالسادية - والرغبة فى تلويث سمعتهم، وقد يستدل على ذلك من قول العمري : وكانت ولادة ذات بواذر يشيب لها رأس الوليد ، وفى نظر نيكل أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادى الطبيعى الذى يذكرنا بجورج صائد ، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة^(١) ، ولكن هذا الحب ، على كل حال ، جعل ابن زيدون يصدق بقصائد خالد مثل "أضحى التنائى" ومثل :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله

كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم

كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت

بتنا لها - حين نام الدهور سراقا

(١) راجع على عبد العظيم ، مقدمة الديوان ، ص ٣٩

كل بهيج لنا ذكرى تشوقنا
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركمو
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

ألوان أخرى من الفن :

دارت موضوعات الشعر عند ابن زيدون حول موضوعات الغزل والوصف والموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وهجاء وقد عرفنا أنه شاعر حب من الطراز الأول - وسنكتفى بما قلناه عن حبه لولادة ، وهي قصائد تخللتها عادة لوحات وصفية متألقة (انظر مثلا مستهل قافيته : إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا) ، وأما جانب المدائح فإن الناس عادة ما يتجاهلون له لأن شهرته في الشعر العاطفي ، لكن المؤرخين المدققين عرفوا له قوة باعه في أكثر من فن ، على نحو ما ترجم ذلك عبارة المراكشي من أن ابن زيدون "كان إذا نسب أنساك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرئ القيس " ، والحق أن مدائح الشاعر تأتي رصينة رنانة طيبة، فيها نفثات "بحترية" لاتنفى عنها الأصالة، وتدور حول ماهو مألوف من المعاني المدحية، لكن ابن زيدون بث في جنباتها من حرارة روحه ودقة تعبيره ما جعلها توج بالإيحاء والإشراق والنبيل واقرأ قوله في أبي الحزم بن جهور :

هذا الصباح على سراك رنيبا

فصلى بفرعك ليلك الغريبيا

ومن أبياتها مما يمتزج فيه التمهيد بالعتاب بالمديح :

مالي وللأيام ؟ لج مع الصبا

عدوانها فكسا العذار مشيبيا

محقت هلال السن قبل تمامه
وذوى بها غصن الشباب رطيبا
لألم بى مالو ألم بشاهق
لا نهال جانبه فصار كثيبا
فلئن تسمى الحادثات فقد أرى
للجفن فى العضب الصقيل ندوبا
ولئن عجبت لأن أضام وجهور
نعم النصير لقد رأيت عجيبا
من لاتعدى النائبات لجاره
زحفا ولاتمشى الضراء ديبيا
ملك أطاع الله منه موفق
مازال أوبا اليه منيبا
بسام ثغر البشر إن عقد الحبا
فرأيت وضاحا هناك مهيبا
ملاً النواظر صامتا ، ولربما
ملاً المسامع سائلا ومجيبا

وقد تأخذ مدائحه مسارا آخر أكثر نعومة وكأنه نسجها هذه المرة بخيوط
من حرير ، وكان الكلمات يهمس بها همسا ينساب على إيقاع موسيقى هادئة
رقيقة ، ومثل هذه القصيدة التى أعرب فيها عن شكره للمظفر بن الأفتس.
أمير بطليوس ، عندما وفد إليه ، فارا من قراطبه ، فأحسن استقباله ونعنى
بذلك قصيدته :

هى الشمس مغربها فى الكلل
ومطلعها من جيوب الليل

ومن أبيات الشكر :

سأشكر أنك أعليتني
بأحظى مكان وأدنى محل
وأني إن زرت لم تحتجب
وإن طال بي مجلس لم تمل
تبسمت ثم ثنيت الوساد
فحسبى من خطر ما أجل
فلو صاقح الترب خدى لهان
ولو كاتر القطر شكرى لعل
بأمثالها يسترق الكريم
إذا مطمح بسواه أخل

وابن زيدون فى معظم شعره واضح فى معانيه سهل فى ألفاظه ، وهو فى كل هذا يكشف عن ثقافة لغوية وأدبية ضخمة ، وما يميزه كذلك هذا الفيض من الصور المتألقة ، التى تكشف عن ولعه بالتشبيه وبالطباق على نحو خاص ، وهذه القدرة الموسيقية التى يضيفها على الأبيات فتنبض بالغنائية وتنسل إلى الفؤاد .

وشعر ابن زيدون مرآة صادقة للشعر العربى - إجمالاً - بكل مزاياه وعيوبه ، وإذا كان قد استوعب كل ما ذكرنا من مفاخر فإنه لا يشف عن رؤية إنسانية خاصة إلا فى القليل النادر ، ولا شك أن جوانب الجودة عنده هى الأساس ، ومن ثم اتفق الدارسون على الإشادة به ، ورأوا فيه " أعظم شاعر قديم أنجبته الأندلس " على حد تعبير جومث .

المعتمد بن عباد

شهد الربع الأول من القرن السادس الهجري سقوط الخلافة الأموية سنة (٤٢٢) واشتداد ساعد حركة " الاسترداد " النصرانية ، وتمزق الدولة إلى أشلاء متناثرة بعد الجاه والمنعة وعلو الشأن علي زمن الفاتحين الأوائل وحتى أيام عبد الرحمن الداخل والخليفة الناصر وأيضا المنصور العامري .

وشهدت الأندلس بعد ذلك ، من بين ما شهدت ، سطوع نجم بني عباد الذي تتابعوا علي ملك إشبيلية وكان منشئ دولتهم القاضي محمد بن اسماعيل ابن عباد (وأصوله من عرب الحيرة) رجلا ذاهية واسع الطموح ، استطاع أن ينصب نفسه أميرا علي المدينة ، وأعلن أنه يحكم في ظل " الشرعية " ويتعاضد بمن زعم أنه هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر " وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين سنة ، ثم قيل إنه حي في قلعة من قلاع الأندلس ، فدعاه القاضي وجعل له اسم الملك ووطد به سلطانه ، وثبت إمارته توفي الرجل المدعو هشاما" (١) ، وكان هذا الموقف واحدا من عجائب التاريخ ، الحافلة بالخداع والادعاء (٢).

وقد استمرت إمارة محمد بن القاسم قرابة عشرين عاما (من ٤١٤ - ٤٣٣ هـ) ، فلما مات خلفه ابنه أبو عمرو ، الملقب بالمعتضد الذي حكم قرابة

(١) د. الوهاب عزام : المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٨ .
(٢) يصفه ابن بسام في الذخيرة - المجلد الأول من القسم الثاني ، ص ٣٧ . هـ " صاحب الرجعة " وقد توقفت الخطبة له في أشبيلية سنة ٤٥١ . وكان هشام المؤيد قد اختفي علي أثر استيلاء أحد أمراء البيت الأموي علي مقاليد الأمور في قرطبة وتواري عن الأنظار طويلا حتي حيكمت حوله الأساطير راجع أيضا : د . حرجى طريبة : الوجدية وأثرها في الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ ص ٥٩ وما بعدها .

ثلاثين سنة ، قويت فيها دعائم الدولة حتي أصبحت دولة بني عباد أقوى إمارات عهد ملوك الطوائف ، ، لكن هذا المجد لم يقم إلا علي القسوة في أنكي صورها ، حتي لتذكر كتب التاريخ أن بستان قصره حفل بالعديد من الأخشاب التي نصبت وعليها رؤوس من فتك بهم من رجالات الأندلس وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه :! ، وعبر ابن حيان عن رأيه في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود " حكايات شنيعة لم يعد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ،... ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة .. " وكان المعتضد شديد الشغف بمقطوعة قال فيها بعد أن أخضع مدينة " رندة " لنفوذه :

لقد حصلت يارندة

فصرت للمكنا عقدة

أفادتناك أرماح

وأسياف لها حدة

وأجناد أشداء

إليهم تنتهي الشدة

غدوت يرونتي مولى

لهم وأراهم عدة

سأفنى مدة الأعدا

• إن من طالت بي المدة

وتبلى بي ضاللتهم

ليزداد الهوي جدة

فكم من عدة قتل

ت منهم بعدها عدة

نظمت رؤوسهم عقدا

فحلت لبة السدة (١)

ومما يذكر أنه لم يتورع عن قتل ابنه وولي عهده اسماعيل إذ شك في ولائه له وانتهه بالخيانة .

وربما كان المعتضد أعظم ملوك " الطوائف " قوة ومنعة لكن ابنه المعتمد (أبو القاسم محمد بن عباد)؛ هو الذي خلد ذكره في التاريخ باعتباره شاعرا إلي جانب أنه كان الأمير الذي دانت له الأصقاع وعمرت قصوره بأعظم آيات الترف ، ثم هوي من علم وتحولت حياته اللاهية إلي مأساة بالمعني الدقيق للكلمة .

وتمر بإيجاز علي حياة المعتمد ، علي الرغم من أبعادها " الدرامية " العجيبة ، التي استحوذت علي الاهتمام في القديم وفي العصر الحديث ووجد فيها الروائيون وكتاب المسرح مادة خصبة للحديث عن البطولة والحب والدهاء والذكاء والطموح و أيضا تتناول مأساة الإنسان في ارتقائه قمة المجد ، ثم في انحداره إلي الدرك الأسفل من الضياع والهوان

وتتلخص حياة المعتمد أبي القاسم محمد بن عباد في أنه ولد في مدينة باجة ، غربي الأندلس في وكان يتلقب في بداية أمره باسم الظافر المؤيد بالله ، ثم تحول إلي المعتمد بعد توليه العرش سنة ٤٦١ هـ ولا يعرف شئ عن أمه

(١) الذخيرة (القسم الثاني) المجلد الأول ص ٣٢ .

(وكان المعتضد قد تزوج من ثمانمائة فتاة) وتمرس منذ شبابه على الأعمال العسكرية والسياسية ، فقد ضم إلى مملكة العبايدة عددا من المدن والقلاع ، منها شلب (وعين أميرا عليها) فلما تولي الملك عين عليها صديقه الشاعر ابن عمار ، الذي كان قرينه في حياة اللهو والمجون في شلب ، ثم كان زواجه من اعتماد الرميكية ، نحو سنة ٤٥٠ هـ (١)

وقد خلف هذا الزواج أثرا عميقا في حياة المعتمد ، وكانت له بمثابة المستشار في كافة شؤون الدولة والمهمة لكثير من شعره ويؤثر أن شاعرنا قاد في سنة ٤٥٩ حملة للاستيلاء على مالقة وكانت من أملاك باديس بن زيري الصنهاجي صاحب غرناطة ، وقد كادت هذه الحملة أن تحقق غاياتها إلا أن الدائرة دارت عليه في النهاية ، وفر من المدينة وهو في خزي من الهزيمة، وفي خوف من حساب أبيه وهو الطاغية القاسى الجبار ، وفي هذا الموقف كتب الشاعر واحدة من أجمل قصائده ، استهلها بمخاطبة نفسه :

سكن فؤادك ، لا تذهب بك الفكر

ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترض بالبكاء لها

واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وان يكن قدر قد عاق عن وطر

فلا مرد لما يأتي به القدر

(١) رجع د. صلاح خالص هذا التاريخ في دراسة حول : المعتمد بن عباد الأشبلي ، بغداد سنة ١٩٥٨ ص ٣٠ .

وان تكن خيبة فى الدهر واحدة

فكم غزوت ومن أشياحك الظفر

وهذه القصيدة أول ما وصل إلينا من آثاره ، وفيها ما ينم عن درية ، مما يؤكد أنها كانت مسبقة بمحاولات كثيرة قبلها .

وعندما آل إليه الملك (سنة ٤٦١ هـ) لم تصرفه أمور الدولة عن الشعر والشعراء ، ولاننسى أن المعتمد قرب ابن عمار وجعله على شلب ، ثم استدعاه إلى إشبيلية حيث تقلد الوزارة ، واستطاع المعتمد فى سنة ٤٦٢ أن يستولى على قرطبة التى كانت جيوشه قد جاءت إليها لتدعيم ملك عبدالمملك بن جهور وصد غارات ابن ذى النون عنها ، ثم لم تلبث هذه الجيوش أن بسطت نفوذها على حاضرة الأمويين ، وفى ذلك يقول المعتمد :

من للملوك بشأو الأصيد البطل

هيهات ، جاءكم مهدية الدول

خطبت قرطبة الحسناء إذمنعت

من جاء يخطبها ، بالبيض والأسل

كما نجح ابن عمار فى الاستيلاء على مرسية ، لكنه لم يكن فى واقع الأمر يعمل لحساب سيده "المعتمد" وإنما لحساب نفسه ، متواطئا فى ذلك مع ملوك الفرنجة وخاصة ألفونسو السادس ، وفى هذه الأونة سقطت طليطلة فى أيدي النصارى (سنة ٤٧٤ هـ) وابتدأ بذلك طور خطير فى زعزعة كيان المعتمد ابن عباد ، واشتداد قوة حركة "الاسترداد" ، وكان سيد إشبيلية القوى يؤدى الجزية صاغرا لألفونسو السادس ، وصورة الأندلس تبدو آنذاك شديدة الاضطراب ، منذرة بالويل والدمار ، وبالفعل وقع التنافر بين المعتمد والملك القشتالى ،

ولم يكن هناك من مناص إلا الاستعانة بالأمير المرابطى يوسف بن تاشفين وكان
ماكان من أمر عبور الجيوش البربرية إلى الأندلس والانتصار الهائل فى معركة
الزلاقة التى يسميها الأوربيون ساكر الياس Sacralias ذلك سنة ٤٧٩

وبعد ذلك بسنتين كان العبور الثانى ليوسف بن تاشفين لتخليص بعض
الحصون من أيدى الفرنجة ، ثم كان العبور الثالث الذى قرر فيها أمير البربر
تخليص الأندلس من كافة ملوك الطوائف - بما فيهم المعتمد بن عباد - وتوحيد
البلاد تحت امرته ، وهكذا كان الاستيلاء على مملكة غرناطة وطرده بنى زيرى
منها، ثم جاء الوقت الذى تآهب فيه للانقضاض على المعتمد، ولم يتورع هذا
عن طلب العون من ألفونسو السادس، ونجحت جيوش المرابطين فى الاستيلاء
على قرطبة وقتل أميرها (المأمون ابن المعتمد) وفى سنة ٤٨٤ دخلت الجيوش
البربرية إشبيلية، وسبق المعتمد وأمتهات أولاده وأولاده إلى أغمات عاصمة
البربر، ولسان حاله يتمتم :

لما تماسكت الدموع

وتنبه القلب الصديق

قالوا الخضوع سياسة

فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضوع

ع على فمى السم النقيب

إن يسلب القوم العدا

ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا
ع أيسلب الشريف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصنتى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي
ص على الحشا شئ دفعوع
وبذلت نفسى كي تسي
ل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن
بهواى ذلى والمخضوع
ماسرت قط الى القتا
ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم
والأصل تتبعه الفروع

ثم كانت حياة النفى والمهانة والحرمان فى سجن أغمات ، وهو يرسف فى القيود كالليث الأسير أما اعتماد الرميكية - مليكة إشبيلية التى كانت ترفل فى الجاه والنعيم - فإنها وبناتها كن يتعيشن بالغزل نظير دراهم معدودات ، ولم يكن له وقد ضاع الملك إلا أن يلوذ بكنف الشعر يبثه أشجانه ، ومن أجمل ما كتب فى سجن أغمات تلك الأبيات وقد رأى قمرية تنوح وفى عشاها طائران

صغيران :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر
مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة
يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وياحت واستراحت بسرها
ومانظقت حرفاً يبوح به سر
فمالي لا أبكى أم القلب صخرة
وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده
وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير، أو خليل موافق
يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رنذة القبر
إذن إن ضن جفنى بقطرة
وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وقد بكى الملك الذاهب، وتأسف على الذكريات النادرة فى إشيلية، لكن الشجو يبلغ أوجه فى مراثيه لولديه:

يقولون صبرا لاسبيل إلى الصبر

سأبكى وأبكى ماتناول من عمرى

هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه

يزيد فهل عند الكواكب من خبر

نري زهرها فى ماتم كل ليلة

تخمش لهفا وسطه لهفة البدر

ينحن على نجمين أكلت ذا وذا

وأصبر؟ مالمقلب فى الصبر من عذر

وفى تغبيره عن المهانة التى آل إليها أمر فلذات أكباده ، وقد أقبل العيد وليس على بناته سوى الأطمار البالية :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد فى أغمات مأسورا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة

يفزلن للناس لايملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن فى الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والحق أن شعر السجن وشكوى الدهر وصل إلى ذروة روعته الفنية
والتأثيرية عند المعتمد بن عباد ، ومن أجمل ما نذكره له فى هذا المجال تلك
الأبيات التى ينجى فيها الأغلال التى تكبله ووقع ذلك على أطفاله الصغار
وهم ينظرون إليه فى أسى :

قيدى أما تعلمنى مسلما
أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد
أكلته لاتهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبوهاشم
فينثنى القلب وقد هشما
ارحم طفيلا طائشا ليه
لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لايفهم شيئا فما
يفتح إلا لرضاع فما

وآخر ما نذكره له تلك الزفرة الحزينة التى تفيض بالحنين إلى الماضى
الذاهب فى إشبيلية (وأهل الأندلس يسمونها أيضا: حمص) حتى ليتمنى لو

يدفن جدته فيها:

غريب بأرض المغربين أسير
سبيكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
ويتهل دمع بينهن غزير
سبيكيه فى زاهيه والزاهر الندى
وطلابه والعرف ثم نكير
إذا قيل فى أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور
فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
تراه عسيرا أم يسيرا مناله
ألا كل ماشاء الإله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشور قبور

هذه خطوط عامة عن أمير فارس شاعر بمعنى الكلمة ، وإذا كان الذى وصل من شعره قليل فإن فيه ما يكشف عن سمات فنية متنوعة ، ولعل من أبرزها ذلك "الوضوح الذى يدل على وضوح التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء ، وما ساعد على هذا الوضوح الوحدة فى شعره ،

فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر مر بنفس المعتمد ، وتتضافر الابيات
فى إضاح هذا الخاطر ، وتسير فى اتساق ونظام" (١) ، ومن الملامح الفنية
البارزة عنده روعة وقوة الصور، فإنها كانت تأتي فى شعره صافية ، رقاقة
مجسمة للمعنى ، والأمثلة عليها أكثر من أن تحصى مثل قوله فى غلام رآه
يوم العروبة (الزلاقة) فى خضم القتال :

ولما اقتحمت الوغى دارعا

وقنعت وجهك بالمغفر

حسبنا محياك شمس الضحى

عليها سحاب من العنبر

وهناك هذا الجيشان الوجدانى الذى يكسو شعره بفلاله من الصدق وقوة
الأسر مما يخلف فى نفس القارئ أثرا عميقا لا يمحو أبدا

(١) ديوان المعتمد بن عباد بتحقيق د. أحمد أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد (مراجعة طه
حسين) القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٣ (من المقدمة)، وهناك طبعة أخرى للدكتور رضا
الحبيب السويسى تونس ١٩٧٥ سنة ١٩٧٥ لا تختلف كثيرا عن ط القاهرة

أبو اسحاق الألبيري: تحليل قصيدة

هناك نصوص أدبية تكتسب أبعادا بالغة القوة والتأثير لا بالنسبة لعصرها وحده، ولا من حيث ارتباطها بـ " مناسبة" أو بقطر ما وإنما لأنها تتغلغل في صميم الأحداث بحيث تصبح قيمة انسانية مطلقة ، تعبر عن واقعة ما كما أنها تمثل ركيزة ورمزا ومجالا لتأويلات لا حد لها من التنوع والثراء.

من هذه النصوص النادرة قصيدة تعود بنا إلى غرناطة في ظل ملوك الطوائف ، وإلى الأندلس بكل ماكانت تموج به آنذاك من أجناس وأجواء وأهواء وأعاصير راحت تتهدد مسلميها بعد أن انقسموا الى شيع متنافرة : فهناك بنو عباد في اشبيلية، ودولة بنو جهور في قرطبة، وبنو هود في سرقسطة والعامريون في بلنسية وبنو الأقطس في بطليوس ... صورة مأساوية لكيان كان من قبل ملء السمع والبصر ، لكن البنيان الشامخ انهار ، وتحول الى مجرد طول وجدران وسرايب وأحجار ...

لكن مايشغلنا الآن قصيدة اشتهرت في غرناطة التي كانت خاضعة آنذاك لأمير بربري من صنهاجة هو باديس بن حيوس ، رأس بنى زيرى آنذاك

وقد قدر لباديس هذا أن يحرز سلسلة من الانتصارات على زهير العامري، صاحب المرية، وعلى بنى عباد وبنى حمود ، ولكنه كان "سفاكا للدماء، فيه عدل بجهل" على حد تعبير الذهبي، الذي روى عنه نوادر تشبه من بعض الوجوه ماروي عن قراقوش وزير صلاح الدين ، فمن ذلك أن امرأة وقفت له عند باب مدينة ألبيرة" فقالت: يامولانا: ابني يعقني، فطلبه ودعا بالسيف،

فقال المرأة: إنما أردت تهديده ، فقال: ماأنا بمعلم كتاب ، وأمر به فضربت عنقه" (١)

وخبر آخر حكاه الذهبي أيضا يقول ان أميرا صنهاجيا مر بيدوى بانس ومعه زوجة جميلة، فأركبها الأمير شفقة عليها ثم هرول بها وضمها الى حريمه، وجاء الرجل لقصر الأمير فطرده، عندئذ توجه الى باديس فشكاه أمره، فقال الملك لذلك الأمير "ادفع اليه زوجته" فأنكر، فقال : يابدوى! هل لك من شهيد ولو كلبا يعرفها؟ قال: نعم، فدخل بكلب له الى الدار، وأخرجت الحرم ، فلما رآها الكلب عرفها ويصبص ، فأمر الملك بدفعها إلى ، البدوى ، وضرب عنق الأمير، فقال البدوى: هي طالق لكونها سكتت ورضيت فقال الملك صدقت! ولو لم تطلقها لألحقتك به . ثم أمر بالمرأة فقتلت" ولا نريد أن نطيل فى أخبار باديس هذا الذى امتد ملكه على غرناطة طويلا (ثم تملك من بعده عن الله بن بلكين ابن حبوس، وفى عهده استولى يوسف بن تاشفين على غرناطة سنة ٤٨٣ وتم نفي عبدالله الى أغمات وهناك ألف كتابه: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة، وهذا الكتاب نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان : مذكرات الأمير عبدالله ، وبعد أهم مصدر عن نهاية عهد ملوك الطوائف، خاصة مااتصل منها بغرناطة) إذ حكمها من ٤٣ هـ إلى ٤٦٦ هـ.

ومن أغرب ما اتسم به ذلك العهد ازدياد نفوذ اليهود بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل، ولعل من أسبابه أن بنى زيرى كانوا يشعرون بالعزلة بسبب عداء بقية أهل الأندلس لهم ، وشعورهم بأن هؤلاء البربر دخلاء عليهم، ومن ثم عول بنو زيرى على هؤلاء اليهود ، فكان منهم الوزراء وجباة الأموال والمراجعون الخ ... وكان جل اعتمادهم على بنى النغرلة .

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥٩١

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه الصيغة : النغرة مختلف عليها إذ "يكتب الاسم على أشكال لعل أصوبها ابن نغذالة أى "المدير" ويطلق على اثنين مشهورين هما صموئيل بن يوسف (اسماعيل أو اشموال بن يوسف) ويوسف ابنه، وقد كان اسماعيل عالما وزر لصاحب غرناطة، وخلفه ابنه يوسف فأساء التصرف فيما يبدو ، فثار الناس عليه وقتلوه ، ولكن ابن بسام ينسب أفعال الابن إلى أبيه ، ويتابعه فى ذلك ابن سعيد فى المغرب" (١) والثابت على كل حال ان مكانة ابن النغرة كانت عالية عند باديس ، لأن هذا اليهودى الماكر جعل أمير غرناطة سجيناً للملذات والخمر ، وسعى (هو أو أبوه) لتمكين ابن صمادح - صاحب المربة - من الاستيلاء على غرناطة، كما أرق أهل المدينة بالضرائب الباهظة، ومكن اليهود فى المقابل من المناصب البارزة، وهذا كله عمل على إلهاب مشاعر مسلمى غرناطة الذين صبروا طويلاً على هذا العبث من ابن النغرة، وهذا التراخى من باديس بن حبوس، وكان أن انفجر الموقف فى التاسع من صفر سنة ٤٥٩ (٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦) وإذا بالجموع الغاضبة تفتك بالوزير اليهودى وتقتل بضعة آلاف من بنى جلدته، وتشيع الخراب والدمار فى أحياء اليهود بغرناطة. ويجعلون من أسباب اشتعال الثورة ضد اليهود تلك القصيدة التى أشرنا إليها فى مستهل هذا الحديث ، وهى لشاعر اسمه أبو الإسحاق الإلبيرى، هو الذى نتناوله الآن فى إيجاز .

(١). هامش الذخيرة، المجلد الثانى من القسم الأول ، ص ٧٦١ ولاهين حزم رسالة الرد على ابن النغرة، تحقيق د. احسان عباس، القاهرة سنة ١٩٦٠ وذكر ابن بسام بعض مدائح فيهم ألفها شاعر يدعى المنفتل .

(٢) ذكر ابن بسام أن عدد القتلى نيف على أربعة آلاف - ص ٧٦٩ من القسم الأول - فى حين يقول جومث فى :مع شعراء الأندلس والتنبيه ، الطبعة الثالثة - بترجمة د. الطاهر مكى - ص ٩١ أن عدد القتلى ثلاثة آلاف

وهناك أمور متفق عليها بالنسبة له، منها ان اسمه ابراهيم بن مسعود التجيبى ، وأن كنيته أبو اسحاق ، وأنه ينسب الى مدينة البيرة، (التي نفي اليها بتحريض من ابن النغلة) ، ونقل ابن سعيد عن صاحب المسهب أنه "من حصن العقاب ، وكان قد اشتهر فى غرناطة اسمه ، وشاع علمه ، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغله اليهودى ، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له ، فسعى فى نفيه الي البيرة ، فقال شعره المشهور :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

فاشتهر هذا الشعر ، وثارت غرناطة على اليهودى فقتلوه وعظم قدر أبى إسحاق" (١)

وذهب لسان الدين بن الخطيب الى مثل هذا القول - مع بسط وتفصيل - إذ يذكر استفحال شأن ابن نغالة "الى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع الى حاله الاختلال ، وكثرت فيه الأقوال، ورمى بمداخلة ابن صمادح صاحب المرية فى تصوير ملك باديس إليه . وحفظت القصيدة المنسوبة الى المولى العابد أبى إسحاق الألبيرى - رضى الله عنه :ألا قل لصنهاجة أجمعين (وأوردها كاملة) فثار بهم صنهاجة، وقد تيقنوا إعراضه عنه وعمله على نكبته ، وزحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها وانتهبوها. وأخفى اليهودى نفسه فى بيت ملآن فحما، وسود به وجهه وتنكر ، فأخرجوه وقتلوه ، وصلبوه على باب المدينة، وقتل فى هذا اليوم آلاف من اليهود.."

وفى هذه الإشارات مايجعل من قضية الألبيرى الشرارة التي فجرت

(١) المغرب ج ٢ ص ١٣٣

المعمعة، بينما لا يأتى عنها فى مصادر أخرى أدنى إشارة تدل على صلتها بالأحداث، فمن ذلك أن ابن بسام يجعل ثورة أهل غرناطة مقرونة باكتشاف ما كان من أمر التواطؤ بين ابن النغرلة وابن صمادح - الذى تحدثنا عنه قبلا - وربما كان أرجح الآراء أن عوامل كثيرة أسهمت فى صنع هذه الأحداث ، منها عكوف باديس على ملذاته الي حد أنه لم يعد يرى من الأمر شيئا ، ومنها تسليمه كافة مقاليد الأمور الى ذلك الوزير اليهودى الداهية، الذى لم يكف طيلة عهده عن التآمر والغدر ونهب الأموال وسوء الإدارة والاستهتار بالرعية والدين ، ومنها أيضا تلك القصيدة المتفجرة بالقوة وصدق التعبير والتي تقول أبياتها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة

تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافرا

ولو شاء كان من المسلمين

فعر اليهود به وانتخوا

وتاهوا ، وكانوا من الأردلين

ونالوا مناهم وجازوا المدى

فحان الهلاك وما يشعرون

هكذا تأتي البداية ملائمة لجلال الموقف العاصف، وتتجلى البراعة فى

(١) أعمال الأعلام (تاريخ اسبانية الإسلامية) تحقيق ل. بروفنسال بيرنت ١٩٥٦ ص ٢٢٣

توجيه الخطاب الى صنهاجة - الى شعب غرناطة - وكأننا أمام خطبة أو
"منشور"، وهي نغمة قليلا ما نصادفها في الشعر العربي حيث إما المديح وإما
الهجاء، ويتلو ذلك ذكر لتولى ابن النفرة الوزارة، وما بلغه اليهود من شأو
(موقوت)

ثم يتابع الإلهي الحديث :

فكم مسلم فاضل قانت

لأرذل قرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم

ولكن منا يكون المعين

فهلا اقتدى فيهم بالأئى

من القادة الخيرة المعقنين

وأنزلهم حيث يستأهلون

وردهم أسفل السافلين

وطافوا لدينا بأخراجهم

عليهم صغار وذل وهون

ولكن الشاعر ، لأمر ما ، يعدل عن المضى في تبيكيت باديس، فبعد أن

قال إنه زل زلة شنعاء، نراه يوجه له الخطاب قائلاً :

أباديس أنت امرؤ حاذق

تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم

وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيف تحب فراخ الزنا

وهم بغضوك الى العاليمين
وكيف يتم لك المرتقى
إذا كنت تبني وهم يهدمون؟
ثم يضيف :

وإني احتللت بفرناتة
فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها
فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقيضون جباياتها
وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا
وأنتم لأوضعها لابسون

ولكن لهجة الشاعر لباديس فيها محاولة لإيقاظه من غفلته وليس فيها
خنوع أو مذلة . إنه يهتف به :

وهم أمناكم على سرکم
وكيف يكون خزون أمين
ويأكل غيرهم درهما
فيقصي ويدنون إذ يأكلون
وقد لابسوكم بأسجارهم
فما تسمعون ولا تبصرون

ورخم قردهم داره

وأجرى إليها نمير العيون

فصارت حوائجنا عنده

ونحن على بابه قائمون

وقد عرفنا من أمر فرط ثقة باديس في ابن النغرة ومع ذلك فإن الشاعر
يغريه في هذه القصيدة بان يفتك به ، ويستعين في تسريح ذلك بمحاولة اثاره
النخوة في نفس ملك غرناطة :

فبادر الي ذبحه قرية

وضع به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه

فقد كنتوا كل علق ثمين

وفرقت عداهم وخذ مالهم

فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدره

بل الغدر في تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم

فكيف تلام على الناكثين

وكيف يكون لهم ذمة

ونحن خمول وهم ظاهرون

ونحن الأذلة من بينهم

كأنا أسيانا وهم محسنون

فلا ترض فينا بأفعالهم

فأنت رهين بما يفعلون

وراقب إلهك فى حزبه

فحزب الإله هم الغالبون

وقد أوردنا معظم أبيات هذه القصيدة التى شغل الناس بتحليل جوانبها التاريخية، ولكنها جديرة بأن تنال كذلك قدرا من الاهتمام بأبعادها الفنية والجمالية ، ولسنا نزعم أن الألبيرى من الشعراء الفحول ، ومع ذلك فأى براعة تجلت فى اختيار هذا النسق اللغوى الواضح البسيط الذى يخاطب الأذن ويتسلل الى الوجدان مباشرة بلا أدنى كلفة؟ :

وتأتى الموسيقى الصادحة لتتواءم تماما وروح القصيدة ، التى تنتهى أبياتها بحرف النون الساكن، بكل ما فيه من رنين وأصداء ، تعضدها صور شديدة الوضوح والبساطة ومن هنا لا نكاد نصادف شيئا من الانفصال حتى فى حالات تعارض الصور مثل " وكيف تحب ... وهم بغضوك.. " ومثل :...إذا كنت تبني وهم يهدمون ، و "كيف أنفردت بتقريبهم ... وهم من المبعدين " .

ومن جوانب التوفيق فى نونية الألبيرى الاستعانة بالمعانى الدينية الإسلامية وهذا بلغ ذروته فى البيت الأخير الذى يخلف فى نفس السامع أثرا قويا يظل يرن فى الاذان طويلا ، محققا الغاية التى رعى اليها هذا النص الذى يتفجر بالقوة والغضب والحيوية والصدق والمهارة الفنية .

لمحة عن

الشعر في عصر المرابطين والموحدين

مدخل،

لعل القرنين الخامس والسادس أعظم عصور الأدب في الأندلس ، وبحسب المرء أن يختبر كتباً مثل الذخيرة والقسم الأندلسي من الخريدة وكذلك مطمح الأنفس وقلائد العقيان والمغرب والمغرب .. الخ لكي يطمئن الى هذه النتيجة ونسلم بأن درس هذا النتاج الأدبي مسألة محفوفة بالعديد من الصعوبات ، فهل ندرسه بحسب العصور أم وفقاً لتقلب الأوضاع السياسية أم تبعاً للاتجاهات الفنية - ان كانت هناك اتجاهات واضحة المعالم - ؟

ولعل الأجدى أن نتفق على أن الأدب الأندلسي "مجرد فترة من تاريخ الأدب العربي.. لا يقتصر ارتباطها على حياة الأقطار العربية وحدها، وعندما يجرى الحديث عن تطور الثقافة العالمية فإن هذا الماضي يعطينا مثالا واضحا لتمييز الحدود بين الشرق والغرب ، ويدخل الشعر العربي في الأندلس في نطاق الثقافة والأدب العالمي لا لمجرد أنه نما وتطور على أرض إحدى الدول الغربية .. المهم هو أن الفترة العربية في الأندلس هي فترة التأثيرات الأدبية العميقة الواسعة التي تسمى جوازا بالتفاعلات الغربية - الشرقية أو على وجه التحديد الرومانية العربية؛^(١) وهذا يبلغ مداه في الفترة التي نحن بإزائها

أما "أندلسية" هذا الشعر فإن استخلاصها يحتاج الى هوادة وتمعن،

(١) كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة د. محمد منير مرسى ، القاهرة

١٩٧١ ، ص ٩

فالأصول الفنية التي حكمت شعر المشرق هي التي امتدت الي المغرب، ومن الصعب إطلاق أحكام صارمة ترسم الفروق بين هذا وذاك، ولكن يمكن القول بأن أهل الأندلس كانوا في هذه الفترة أقل شغفا بالبديع من نظرائهم بالمشرق وقارن بين أعمالهم وبين أدباء مثل القاضي الفاضل وابن قلاقس وابن سناء الملك، على سبيل المثال وهذه النتيجة نستخلصها في شيء من الاطمئنان من خلال التأمل في أعمال شعراء الأندلس العظام في القرن السادس الهجري، ممن سلمت دواوينهم من الضياع أوجمعت أشعارهم في العصر الحاضر، وهناك - على سبيل المثال لا الحصر - الأعمى التطيلي الأديب الوشاح (ت ٥٢٧ق) وابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧ هـ) وابن خفاجة (٥٣٣ هـ) ... وانتهاء بأبي بكر بن زهر . الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، وكل منهم أبدع في شعره غاي. الإبداع، وصفا طبعه فبعد عن التكلف كل البعد .

وامتداداً من النقطة السابقة نشير الى عدم احتفاء هؤلاء الشعراء بمنزعة التوليد العقلي الذي أغرم به كثير من شعراء المشرق آنذاك، حيث دفعتهم الرغبة في الابتكار إلى الوقوع في شراك التكلف والالتكاء على الأفكار والمصطلحات العلمية والفقهية وما إلى ذلك^(١) وهو ما لاثراه عند الأندلسيين إلا في القليل النادر

وهذا كله أدى إلى أن يكون النص الشعري الأندلسي، بصورة عامة، واضح النسق ، مترابط البنيان ، لا يلجأ عادة الى المقدمات الشكلية، ويغلب عليه الميل إلى التشخيص والتفاعل مع الطبيعة والحياة^(٢) ويجنح الشعر الأندلسي إلى التعبير عن مدى إقبالهم على الحياة وشغفهم بكل ما يحيط بهم

(١) للمزيد من التوسع يراجع : د. حكمت الأوسى: الشعر في عصر الموحدين ص ٢٤٣

(٢) راجع في ذلك كتاب ب. عبدالعزيز الأهواني: ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، وانظر كتابنا : النصوص الصقلية، والمراجع المذكورة فيه .

من جمال وترف ونضارة ولذا جاء هذا الشعر فى معظمه واضح الأفكار والتراكيب والصور ، وقد يوصف بالسطحية وعدم الجزالة وقللة التأنق إلى آخر ما يطلقه أصحاب الأذواق "الكلاسيكية" من أحكام قاسية لاتخلو من تعسف .

ويلاحظ ، على كل حال، أن الشعر الأندلسى أكثر "رومانسية" من الشعر المشرقى وهذه بدورها مقولة ضخمة تحتاج الى مزيد من الشرح والاستدلال والتحديد ، فضلا عن أن تحديد "الرومانسية" (١) أمر معقد، وكل ما نريد أن نقوله الان فى إيجاز ان الحدة العاطفية تبدو أشد توهجا فى الأندلس منها فى المشرق، على الأقل ابان تلك الفترة التي نتعرض لها، والتي ضمت شعراء مثل ابن خفاجة الأندلسى ، وابن الزقاق البلبسى ويحيى بن بقمى وأمىة بن أبى الصلت وابن اللبانة والأعمى التطيلى وابن مجبر وابن زهر الحفيد الخ ، ممن سوف نتناولهم ومن لا يتسع المجال للحديث عنهم تفصيلا .

ومن منا لم تتحرك أحاسيسه وهو يقرأ قصيدة ابن خفاجة " فى

الاعتبار":

بعيشك هلى تدرى أهوج الجنائب

تخب برحلى أم ظهور النجائب

فما لحت فى أولى المشارق كوكبا

فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب

وحيدا تهادانى الفيافى فأجتلى

وجوه المنايا فى قناع الغياهب

(١) لا نعى بالرومانسية هنا المدرسة الرومانتيكية التي شاعت فى الشعر الأوروبى فى أخريات القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن المقصود منها الأدب الذى تسيطر عليه الأخيلة والانفعالات الحارة والانغماس فى الذات .

وأشهر ما فيها قوله فى وصف الجبل :
وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعناق السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة
ويزحم ليلا شبهه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالى مطرق فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوانب
أصحت اليه وهو أخرس صامت
فحدثنى ليل السرى بالعجائب (١)

ومن هذا الطراز قوله ابن جبير الهلنسى:
غريب تذكر أوطانه
فهيج بالذكر أشجانه
يحل عري صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفانه
وقول أبى الحسن بن مطرف، من شعراء مجموعة "زاد المسافر":
أنا صب كما تشاء وتهوى
شاعر ماجن خليع جواد

(١) راجع القصيدة فى ديوانه (طبعة د. سيد غازى ص ٢١٦)

أرضعتنى العراق ثدى هواها
وغذتني بظرفها بغداد
راحتى لوعتى وإن طال سقم
وتماذي على الجفون سهاد
سنة سنها قديما جميل
وأتى المحدثون مثلى فزادوا

على أن الشعر الأندلسي لم يكن كله شعر لهو وغزل وهيام في رحاب
الطبيعة فقد خاض في مختلف مجالات التعبير ، والتصق بالخلفاء والأمراء
وذوى الجاه ، وتناول كذلك المعارك فهلل للانتصارات، ونقب عن الأعذار عند
الهزيمة، وتحول أحيانا إلى ما يشبه "البيانات" الحماسية الناطقة باسم الدولة، فمن
ذلك أن الخليفة أبا يعقوب يوسف أمر بأن تذاع في قبائل افريقية قصيدة تحضهم
على ترك الخلافات والتأهب للجهاد لنصرة الأندلس، فكتب علي اثر ذلك طبيبه
الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل قصيدة طويلة مطلعها:

أقيموا صدور الخيل عند المضارب

لغزو الأعدى واقتناء الرغائب (١)

ومن أبياتها :

ألا فابعثوها همة عربية

تحف بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من بنى ابن عامر

وما جمعت من طاعن ومضارب

(١) انظر الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٤٧٩

لكم قبة للمجد شدوا عمادها

بطاعة أمر الله من كل جانب

كما أمر الخليفة بأن توجه قصيدة ثانية فكتب ابن عياش الكلاب على

الأثر :

أقيموا الى العليا عوج الرواحل

وقودوا الى الهيجا جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة نائر

وشدوا الى الأعداء شدة صائل

فما العز إلا ظهر أجرد بسابح

يفوت الصبا في شدة المتواصل

وأبيض مآثور كأن فرنده

على الماء منسوج وليس بسائل

ومن أبرز شعراء هذه الفترة عباس الجراوى (مناقس ابن مجبر، وسنعرض

له بعد قليل)، وله عشرات القصائد فى مدح الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ابنه

المنصور، وله فى التهنية بانتصاره على بنى غانية وفتح قفصة قصيدة ذكر منها

ابن عذارى عشرين بيتا، يستهلها بقوله :

فتح يظاول فتحه الأحقابا

خضعت له فرق الضلال رقابا

واستشعر المراق منه مخافة

ملكتم عليهم جيئة وذهابا

وغدا به ماقد صفا من عيشهم
كدرا ومافيه الخلاوة صابا

ويقول فى وصف الانتصار:

آيات نصر بينات كلها
بهرت بما جاءت به الألبابا
خصت إماما للبرية محبتي
برا تقيا خاشعا أوّابا
ملك عليه مسحة ملكية
لبس الزمان جمالها جلبابا

وللجراوى قصيدة قالها يهنئ المنصور باستيلائه على مدينة شلب من أيدى
قرنجة البرتغال:

إياب الإمام حياة الأمم
توالى السرور به وانتظم
وجاء به الأرض صوب الحيا
وجلى الظنم به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان
لذى هم دونهن الهمم (١)

وإذا كان هذا النمط من الشعر يزخر بالخطابية وإضفاء شتى النعوت على
السدوحين، والقدرح فى الأعداء بكل السبل فإن فى بعض نماذجه ما يفصح عن
شاعرية أصيلة تفاعلت مع المواقف، ومزجت مزجا حيا بين ذات الأديب وشخص

الممدوح وجلال الأحداث ، (على ماسترى فى كثير من شعراىن مجبر) وتوهىج
الشاعرىة، كما فى مدحة ابن حزمون التى وجهها للخليفة المنصور فى أعقاب
النصر يوم "الأراكة" :

حيتك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومآثمهم
إن الإسلام لفى عرس
أ إمام الحق وناصره
طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى
قدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على
عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما
صدع الديجور سنا قيس
لاقيت جموعهم فغدوا
فرسا فى قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم
عددا لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على
ثقة بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلا كله

بظباك على بشر نجس

وتساوى القاع بهامهم الـ

مرفض مع الحدب الضرس

فأولئك حزب الكفر ألا

إن الكفار لفي نكس

وهكذا تنتهى من هذه العجالة الموجزة عن الأدب فى القرن السادس الهجرى فى الأندلس ، وهى فترة نهضة أدبية وعلمية وحضارية أحييت التألق الذى كانت عليه البلاد على أيام دول الطوائف ومحت جالة الركود الفكرى التى سادت على زمن المرابطين، كما أن هذا القرن كان عصر قوة نسبية للمسلمين هناك، وهكذا تفتقت الطاقات الفنية لمن ذكرنا من شعراء، وشهدت الأندلس كذلك عبقریات فى مجال الفكر مثل ابن رشد، وظهر فى مضمار الطب أبو بكر بن طفيل وفى النحو ابن مضاء صاحب "الرد على النحاة" وفى هذا القرن بلغت الموشحات ذروة تألقها كما انتشرت فيه الأزجال على يدى أبى بكر بن قزمان، وظهرت فيه نخبة طيبة من روائع كتب الأدب مثل "الذخيرة" لابن بسام وقلائد العقيان والمطمح لابن خاقان ، وزاد المسافر لصفوان بن ادريس الخ ...

الأعمى التطيلي :

ان هذا الشاعر الفذ (أبو جعفر - وأيضا أبو العباس - أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة أو ابن هريرة) ينحدر من أصول عربية (من القيسية) وعادة ما ينسب إلى تطيلة Tudela - وهي غير طليطلة - وتقع قريبا من شرقسطة، من الثغر الأندلسي الأعلى ، وينسب أيضا لإشبيلية ، ومن الملاحظ أن المعلومات عنه قليلة للغاية، وكل ما يرد عنه (باستثناء المختارات الشعرية) لا يتجاوز الأسطر القليلة، فمن ذلك ما يأتي في "الوافى بالوفيات" وفي "نكت الهميان" .. الخ، وعلى الرغم من أن ابن بسام خصص له خمسا وعشرين صفحة إلا أنها في مجموعها مختارات شعرية ونثرية ، يتصدرها قوله : " وله أدب بارع ، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى وذهن لا يبارى ، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز في الطويل منه والموجز، نظم أخبار الأمم في لبة القريض ، وأسمع فيه ماهر أطرف من نغم معبد والغريض . وكان بالأندلس سر الإحسان وفردا في الزمان، إلا أنه لم يطل زمانه، ولا امتد أوانه ، واعتبط عندما به اغتبط؛ " (١)

ولاتكاد المصادر الأندلسية الأخرى التي ترجمت له (مثل قلائد العقيان والمغرب والبغية والروض المعطار) تضيف شيئا ذا بال، والمتفق عله أنه توفي سنة ٥٢٥ مما يرجع معه أنه ولد في ظل دولة المرابطين، وفي عهد فارق الحياة

(١) القسم الثاني من الذخيرة ، ص ٧٢٨ ، وراجع عنه أيضا :

العماد الأصفهاني : خريدة القصر (ط. تونس)

ابن فضل العمري : مسالك الابصار . مصورة منها ص ٢٦٧ من السفر السابع عشر

وليس هناك - من بعد - الا حفنة من المعلومات عن الشاعر تستمد بصورة أساسية من ديوانه ، ويلاحظ أن أدبنا لا يشير قط الى تطيلة ، فى حين أنه كثيرا ما يذكر اشبيلية، التى نشأ بها على نحو ما يقرر الصفى لكنه يبدو بها ملولا أحيانا:

مللت حمص وملتنى فلو نطقت

كما نطقت تلاحينا على قدر

ويقول فى بائيته "عتاب على الدنيا وقل عتاب" :

وقائلة ما بال حمص نبت به

ورب سؤال ليس عنه جواب

نبت بى فكنت العرف فى غير أهله

يعود على أهليه وهو تباب

فبالله ما استوطنتها قانعا بها .

ولكننى سيف حواه قراب

أغضب حسادى قيامى إلى العلا

وقد قعدوا لما ظفرت وخابوا

بل أن ديوانه يستهل بقصيدة "بحرض فيها أهل اشبيلية

على رجل عسوف" - ؟ - :-

الى الله أشكو الذى نحن فيه

أسى لا ينهنه منه الأسى

على مثلها فلتشق القلوب

مكان الجيوب والا فلا

فشا الظلم واغتر أشياعه
ولا مستغاث ولا مشتكى
"وماذا بجمص من المضحكات
ولكنه ضحك كالبيكا"

والتطيلي كثيراً مايتشكى الفقر:

الحمد لله وشكرا له
لا طارف عندي ولا تالد
صرت ولا أنبيك عن غائب
فى حالة يرثى لها الحاسد
حولى أفراخ كزغب القطا
ليلى من هم بهم ساهد

وسط هذا الجو القاتم من الشكوى والتبرم تنداح مدائح التطيلي لتشغل
معظم الديوان وبعض منها قيل فى على بن يوسف بن تاشفين، ثانى ملوك
المرابطين ، وكان وقتها وليا للعهد :

جنابك للعلا حصن حصين
وذكرك للمنى دنيا ودين
وأدنى غايتيك لها أمان
وكلتا راحتك بها يمين
أهاب بك الزمان إمام عدل
فلبته بك الحرب الزبون

حساما ماانتضاه الدهر الا

ليعلم من يفى من يخون

وآخر أبياتها:

ولى العهد لى بهواك عهد

كأن مداتحى منه يمين

سدت مقاقرى وأشدت باسمى

فذل الصعب وانقاد الحرون

وخيل لى الغنى فنطقت عنه

لعلمى أنه مما يكون

وقد بويح على بن تاشفين أميرا للمسلمين سنة . . ٥٠ هـ ، مما يقطع بأن

قصيدتنا هذه قيلت قبل هذا التاريخ .

وللتطيلى مدائح كثيرة فى . عدد من قواد المرابطين ووزرائهم ورجالاتهم

فمن ذلك ماقاله فى الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى (ابن عم يوسف بن

تاشفين) الذى يعود له الفضل فى الاستيلاء على أهم ممالك "الطوائف" :

أقل ماتهب الأعمار والدول

ودون ماتتعاطى القول والعمل

ومن أبياتها :

ياأيها الملك الميمون طائرته

يابدر يابحر ياضرغام يارجل

أتاركى لصروف الدهر تلعب بى

وقد حدانى اليك الحب والأمل

كما مدح القائد ابا الحسين بن الربيع بقصيدة طويلة فى ثمانية وسبعين
بيتا أولها:

تلاف فلانا وأخلف فلانا
كفانا منى وكفانا امتنانا
وطاول بعمرك عمر السهى
فأبل زمانا وجدد زمانا

ومن أبيات المديح فيها:

ركبت الملوك وأركبتها
تكف الجماح وتكفى الحرانا
وأشبهت آباءك الأولين
عرضا عزيزا ومالا مهانا
ولعل الجديد فى مدائح التطيلى أن بعضا منها قيل فى الأميرة حواء
زوجة ابن سير ، مثل قصيدته :
ياربع ناجية التى انهلت بها السحب
أما ترى كيف نابت دونك النوب

ولقطع المديح تمهيد جميل يقول فيه :

هبت تعاتبنى زهر وقد علمت
أن العتاب شجى فى القلب أو شجب
قالت : قعدت وقام الناس كلهم
ألا يعللك الإثراء والرتب

فقلت كفى فما تغنى مقارعتى
فى أمة ضاع فى أثنائها الأدب
فاستضحكت ثم قالت: أنت فى سعة
من أن تسيم، وهذا الماء والعشب
أما رأيت ندى حواء كيف دنا
بالغيث اذ كاد يأتى دونه العطب
مليكة لا يوازى قدرها ملك
كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

وفى ديوان التطبلى بعض قصائد فى الرثاء وغيره إلا أن براعته إنما
تتمثل بصورة أساسية فى المديح وفى شعر الغزل ، وهناك ما يدل على أنه تعلق
بقينة تدعى "الذيدة" وله فيها قصائد أوردها صاحب "الذخيرة" فمن ذلك قوله:
النوم بعدكم على محرم
من ذا ينام وقلبه يتضرم

ومن أبيات هذه القصيدة (مما لا يوجد فى ديوانه) :

ماء الحياة وقد نأيتم آسن
رنق ووجه الدهر جهم مظلم
قد بان عنى الصبر لما بنتم
والوجد ينجد فى الفؤاد ويتهم
ماكان أكتمنى لسرى قبل أن
تكف الدموع كأنما هى عندم

فإذا عهدت جماعة واعتادنى
تذكاركم فاضت دموعى تسجم
أعتبتكم فعتبتم وأطعتكم
فعضيتم ووصلتكم فهجرتم (١)
قد كان لى فى هجركم لو أننى
أقرى عليه من السلامة سلم
ولقد علمتم أننى قد رمته
فضعفت عنه فافعلوا ماشئتم
أنتم منأى وفيتم أو خنتم
ولكم هواى دنوتم أو بنتم

وهو شعر غاية فى السلاسة ، يتفجر من قلب مترع بالشعور ، ومن قلب
أوتى الفضاحة والقدرة على تجسيم المعانى ورسم الصور الحية المتألقة المتدفقة
بالفن والجمال ..

هذه لمحة عن الأعمى التطيلى الذى عد من اعظم شعراء عصر المرابطين،
أى ذلك العصر الذى هيمن فيه البربر على مقاليد الأمور فى المغرب والأندلس ،
واهتزت فيه مكانة الشعراء تبعاً لذلك فى حين تصدر الفقهاء - من أصحاب
مالك - مما دفع بشاعرنا لأن يصرخ :

أبا رحمة للشعر أقوت ربوعه

على أنها للمكرمات مناسك

(١) البيت فى الذخيرة ، القسم الثانى ص ٧٣٩ : على هذا النحو :

أعتبتكم فعتبتم وأطعتكم
فعضيتم ووصلتكم فهجرتم

وللشعراء اليوم ثلث عروشهم
فلا الفخر مختال ولا العز تامك (١)
فيا دولة الضيم اجملني أو تجاملني
فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضى أو تعارضى
فقد حال من دون المنى قال مالك!

ومع ذلك فقد عاش شعر التطيلي وتغنى به العارفون بفضلته في الشرق
والغرب ، وألفت عنه الكتب والرسائل (٢) وأما الموشحات فإنه بلغ فيها الغاية،
ولهذا حديث في غير هذا المكان ..

(١) تامك : مرتفع .

(٢) راجع عنه :

عبد الحميد عبدالله الهرامة: الأعمى التطيلي ، طرابلس (ليبيا) ١٩٨٣
ومقدمة ديوانه بتحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣

ابن مجبر المرسى

هذه رقيقة أمام شاعر ينتمى إلى عصر الموحدين ، بل هو "شاعر عصره" كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين ، ومع ذلك فإن اسمه غاب فى زحام الأحداث ، فلم يعد القارئ يصادفه ولو عرضاً فى المؤلفات العامة عن تاريخ الأدب الأندلسى ، بل لم يعد يقابله إلا نادراً فى الدراسات التى عقدت حول الحياة الأدبية فى عصر الموحدين .

ومحاولتنا هذه تهدف إلى إلقاء بعض الضوء على حياة وأعمال هذا الشاعر المبدع، وقد عرضنا له فى كتاب مستقل تناول عصره ، من زواياها المختلفة، وحياته، مع جمع لما بقى فى المصادر من عيون شعره، وهناك أيضاً زاوية هامة نلمع إليها فى إيجاز ، وهى أنه كان كذلك صاحب اسهام فى مجال التوشيح (ومن عجب أن كافة المراجع الحديثة لا تذكر شيئاً البتة حول هذه النقطة) .

أما شاعرنا فهو بحسب تعبير الذهبى فى "سير أعلام النبلاء": "شاعر زمانه الأوحى ، البليغ أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر ، الفهرى المرسى ، ثم الاشبيلي : مدح الملوك، وشهد له بقوة عارضته ، وسلامة طبعه ، وفحولة نظمه قصائده التى سارت مثالا ، وبعدت مثالا" (١).

(١) ج ٢١ ترجمة ١.٥ وانظر التكملة لكتاب الصلة والقوات ووفيات الأعيان (فى ثنايا ترجمة الخليفة المنصور) وبغية المتمس للضحى الخ ...

وقال عنه ابن الأبار :

" كان فى وقته شاعر الأندلس ، بل شاعر المغرب غير مدافع "

ووصفه ابن شاعر فى الترجمة التى عقدها له فى "الفوات" بأنه "شاعر

الأندلس فى وقته " .

أما ابن خلكان فقد عرض له فى ثنايا الترجمة ليعقوب بن عبد المؤمن قائلاً : "وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى- ولقد نظرت فى ديوانه فوجدت أكثر مدائحه فى الأمير يعقوب"

وهناك إشارة أخرى للديوان تأتى فى "بغية الملتصق للضبي ؛ أديب شاعر متقدم فى طريقة الشعر ، برع فيها وفاق أهل زمانه...ولقد رأيت شعره مجموعاً فى سفرين ضخمين" .

وقد عرفنا من قبل أن شاعرنا مرسى اشبيلى، ونضيف إلى ذلك قول الحميري فى ثنايا ذكره لمدينة شقورة، من أعمال جيان بالأندلس:

"ومن شقورة أبو بكر بن مجبر ، الشاعر المفلق المجيد ، شاعر دولة عبد المؤمن".

كذلك فإن أبا بحر صفوان يذكر شاعرنا تحت اسم "أبو بكر بن مجبر من بلش" وبذا فإنه ينسب إلى أكثر من مدينة أندلسية، لكن نسبته إلى مرسية أقوى مما عداها.

وبقيت إشارة إلى تاريخ وفاته ، وفى ذلك لاتختلف المصادر كثيراً وقد أورد الذهبى أنه "مات بمراكش ليلة النحر سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، كهلا، وقيل سنة سبع" وقد اتفقت المظان الأخرى على التاريخ الأول (سنة ٥٨٨)

ورأينا ابن خلكان ينص على التاريخ الثاني (٥٨٧) وهناك اتفاق على أنه توفي بمراكش وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وبذا يتحدد تاريخ مولده بستة ٥٣٥ هـ .

ولم يرد فيما فحصنا من أعمال أى إشارة لمؤلفات لابن مجبر عدا ديوانه الذى عرفنا أنه كان ضخما ، فى سفرين ، وهذا الديوان ضائع الان ، ولانملك من شعره إلا ماورد فى ثنايا ترجمته هنا وهناك ، واحتفظت مجموعة "زاد المسافر" بأوفر قدر من شعر ابن مجبر (قراءة ست صفحات) وفى "الروض المعطار" عدد لا بأس به من الأبيات .

وعلى الرغم من ضآلة الفسر الذى وصل إلينا من شعر هذا الشاعر الكبير فإن فيه مايكشف عن سماته العامة من حيث مادة هذه القصائد وقيمتها الفنية .

ومن البديهي أنه - وقد كان شاعر البيت الموحدى - سيأون شاعر مديح فى المقام الزول ، وسيأتى شعره حافلا بأنباء الانتصارات ومنازلة الأعداء وقهر المدن فى الأندلس وفى المغرب ، خاصة على زمن عقب بن يوسف ابن عبد المؤمن الذى شهدت أيامه عشرات المعارك الضارية ، فمن ذلك قصيدته:

أسائلكم لمن جيش لهام

طلاتعه الملائكة الكرام

وقد ذكر الحميرى أطرافا منها عند الحديث عن "حمة مطماطة" ثم عاد إليها عند الحديث عن "عمرة" وهى فحوص بأحواز قفصة هزمت عنده جيوش يعقوب بن عبد المؤمن ، ووقع فريق من كبار قواده فى الأسر ولجأمن جرح منهم إلى قفصة طمعا فى أن يجدوا الملاذ عند ابن غانية ولكنه نكل بهم ، ووصلت أنباء الهزيمة إلى تونس فاستشاط يعقوب بن عبد المؤمن غضبا ، وخرج بجيوشه لملاقاة جيوش ميورقة والأغزاز الذين أوقعوا برجاله الهزيمة عند "عمرة" ، وكان له النصر

على أعدائه عند حمة مطماطة - على مقرية من قابس، وعلى أثر هذا الانتصار
قال ابن مجبر قصيدته تلك التي أوردنا مطلعها، والتي يقول فيها:

تجاذب خيله اليمن اغتباطا

بعصمته ويخطبه الشأم

ويعطو المسجد الأقصى إليه

ويشرف نحوه البيت الحرام

ومنها:

مضى متقلدا سيفى مضاء

هما الإلهام والجيش اللهام

فسل ما حل بالأعداء منه

وكيف استنصل الداء العقام

لقد برزت إلى هول المنايا

وجوه كان يحجبها اللثام

وما أغنت قسى الغز عنها

فليست تدفع القدر السهام

كأن الحرب كانت ذات عقل

صحيح لم يحل به سقام

فأفنت كل من دمه حلال

وأبقت كل من دمه حرام

ولابن مجبر قصيدة أخرى بائية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوقائع استيلاء
الموحدين على قفصة، والصراع بين العرب وابن عبد المؤمن وعلى بن غانية،

وكان يوسف بن عبد المؤمن قد استولى عليها بعد حصار عنيف فى سنة خمس وسبعين وخمسائة، وفى عهد يعقوب بن عبدالمؤمن نجح ابن غانية فى الاستيلاء على بجاية ومليانة ومازونة كما استولى على القلعة وتوزر وقفصة، وقوى مركز ابن غانية بعد هزيمة جيوش الموحدىن فى وقعة عمرة إلا أن خروج يعقوب بن عبد المؤمن على رأس جيشه وانتصاره فى موقعة حمة مطماطة وضع حدا لأطماع ابن غانية، وحوصرت قفصة حصارا عنيفا وضربت بأحجار المنجنىق، واستسلمت بعد مجازر وحرائق وطول تخريب ، وفى هذا يقول ابن مجبر :

ماغر قفصة إلا أنها اجترمت

فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

مايالها زار أمر الله حوزتها

فلم يكن عندها أهل وترحيب

وتغنى ابن مجبر باسترداد يعقوب بن عبدالمؤمن لمدينة شلب، وكان ملك البرتغال ابن الرنق (سانشو بن هنريكس) قد حاصر المدينة وخاف أهلها من الهزيمة فسلموها له بكل ما فيها ، وثار يعقوب بن عبدالمؤمن حين وصلت إليه أنباء هذا الاستسلام وخرج من مراكش . سنة خمس وثمانى وخمسائة فسار إلى رباط الفتح وبقى هناك إلى أن اجتمعت جيوشه ، واتجه - بحرا - من قصر مصمودة حتى وصل إلى جزيرة طريف ، وفى قرطبة عقدت له الرايات بمسجدها الجامع ، وفى ذلك أنشد ابن مجبر :

بشراي هذا لواء قل ماعقدا

الا ومد له الروح الأمين يدا

وأقبل النصر لا يعدو مناخيه

فحيثما قصدت راياته قصدا

واستقبلته تباشير الفتوح وقد

كادت تكون على أكتافه ليدا

وكان هذا حقا بشيراً بالفتح فإن جيوش الموحدين أحاطت بالمدينة وشدت عليها الحصار ونصبت المجانيق واشتدت وطأة القتال حتى طلب الفرنجة الأمان على أن يسلموا المدينة للمسلمين ، وتم استرداد شلب سنة سبع وثمانين وخمسائة ، وأنشد ابن مجير فى هذه المناسبة قصيدة يقول فيها :

دعا الشوق قلبى والركائب والركبا

قلبوا جميعا وهو أول من لى

وظلنا نشاوي للذى بقلوبنا

نخال الهوى كأسا ويحسبنا شربا

إذا القضب هزتها الرياح تذكرنا

قدود الحسان البيض فاعتنقوا القضا

وهناك نصوص أخرى مدحية فى الخليفة يعقوب أو فى بعض أبناء البيت الموحدى، مما لا يرتبط بأحداث كبرى، مثل التهنئة بإيلال من مرض أو نحوه ، ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن شاعرنا توارت ذاته فى خضم متابعة الوقائع وإزجاء أبيات المديح ، بل إننا نحس فى مواضع كثيرة من شعر المديح نفسه بهذا الملمح الذاتى ينثال شفيفا متوهجا كما فى قوله :

أتراه يترك العذلا

وعليه شب واكتهلا

كلف بالغيد ما علقت

نفسه السلوان مذ عقلا

غير راض عن سجية من
ذاق طعم الحب ثم سلا
نظرت عيني لشقوتها
نظرات وافقت أجلا
غادة لما مثلت لها
تركتني في الهوى مثلا

وهي قصيدة جميلة احتفظ ابن خلكان باثنين وثلاثين بيتا منها ، وأورد
بعض أبياتها الذهبى فى سير أعلام النبلاء وصفوان فى زاد المسافر وابن شاعر
فى الفوات الخ...فهى - على هذا - أشهر قصائد ابن مجبر ، وعمضى مقطعا
الغزلى على هذا المنوال الراقص المفعم بالبساطة وقوة التأثير .

ومن أجمل قصائده قوله :

سأستجدى صغيرا من كبير

وأرغب فى حصاة من ثبير

وفىها حديث عن فاقته ووحدته وغربته ، ووصف جواده الذى أضناه
الهزال من شدة الجوع وطول التسيار فى البلاد:

ووجه العذر فى الأسفار باد

فلا أحتاج فيه إلى سفور

رأيت الحبة البيضاء عزت

فكيف يسير بي طاوى المصير

متى أصفى إلى تصهال طرف

يجبه بالعريل وبالزفير

وأورده المناهل وهي زرق
فيصدر بهى عن الماء النمير
وإن أصفر ليشرّب قال مهلا
أصفر الجوف يشرب بالصفير؟
أحس بوسق أبعرة رأها
فأقبل يرتعى بعر البعير
ورام يسير من طرب إليها
فقيده الهزال عن المسير

وفيما يبدو أن ابن مجير كان مقتونا بوصف الخيل، وفي نفع الطيب اثنا
عشر بيتا يصور فيها خيل الخليفة الموحدي بألوانها المختلفة وانطلاقاتها العاصفة
وصورها المتألقة :

ترى كل طرف كالغزال فتمترى
أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان فى البيداء يألف سربه
فريته مهرا وهي تحسبه خشقا
تناوله لفظ الجواد لأنه
إذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومن المقطوعات الجميلة التي تصور فاقته :
وقائلة تقول وقد رأتنى
أقاسى الجذب فى المرعى الخصب

أما عطف الفقيه وأنت تشكو
له شكوى العليل إلى الطبيب؟
وقد مر الثناء بمعطفيه
كما مر النسيم على القضيب
فقلت : على شكر وامتداح
وليس على تقليب القلوب

ولابن مجبر مقاطع في الحكمة ، يجسم فيها المعنى من خلال صور
واقعية بسيطة معبرة مثل قوله :

ليت الشباب الذي ولت غضارته
أعطاني الحلم فيما كان أعطاني
فلم تكن منة للشيب أحملها
ولم يكن من سرورى بعض أحزاني

وقد عده المقرئ مما ينبغي أن يفاخر به أهل المغرب أهل المشرق، وذكر
فنونا من ارتجالاته ودريته في الوصف خاصة وصفه لمقصورة المسجد الجامع
بمراكش ، وكانت مشيدة وفقا لتصميم هندسى بارع بحيث تضم الخليفة ووزراءه
عند الصلاة، حتى إذا ما انصرفوا اختفت المقصورة .

والحق أن أوجه البراعة أرحب من أن تحصي عند ابن مجبر، وانظر إلى
قوله من قصيدة في مدح يوسف بن عبد المؤمن :

إن خير الفتوح ما جاء عفوا
مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

تجد الشطرة الثانية تنفث فى المعنى حيوية لا تباري من خلال الإشارة
إلى أمر عادى كثيراً مايقع فى الحياة اليومية ، ومثل قوله فى ضرورة اللين
عند معاتبه الصديق:

وعاتبه لكن رويدا كما

تعض على الطفل عند اللعب

واللغة عنده تذوب رقة عندما يعرض لمواقف الغزل وتنداح حينئذ
الموسيقى والصور المتألقة ، على نحو ما فى قوله :

وزائرة والليل ملق رواقه

ومن أين للظلماء أن تكتم القمر ؟

حدرت نقاب الصون عن صفح خدها

فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر

ولم يأت التساؤل فى الشطرة الثانية عبثا ، وكذلك صيغة التعجب فى
البيت الأول، وانظر كذلك إلى أسلوب الاحتجاج فى مثل قوله مشيرا إلى مصرع
عدد من رجالات الدولة بمن طواهم البحر:

إن الحمام الذى فى البحر غالهم

قد غال عثمان ذا النورين فى الدار

وبذا ينجح فى أن يعبر عن عشرات الأفكار التى تدور حول مصير
الانسان وحول القضاء والقدر والحياة والموت ، ينجح فى التعبير عن كل هذا من
خلال الصياغة الشعرية التى تعتصر المعانى وتختزن التجارب لتصبها فى سلاسة
وعفوية خلال البيت الذى يتحدث عن مسألة من المسائل ولكن معناه ينفلت من
إسار الجزئية الواحدة ليعبر عن الموقف الانسانى ، متجاوزا اسوار الزمان والمكان
والأحداث .

أبو بكر بن زهر (الحفيد)

بما لا شك فيه أن اسم "ابن زهر" من المفاخر التي ظل التراث الأندلسي يباهى بها زمناً (١) ، فقد اقترن هذا الاسم بالعلم والأدب وسار جيلاً بعد جيل، يحوطه التقدير والمهابة.

ورأس هذه الأسرة الفقيه محمد بن مروان بن زهر (ت ٤٢٢ هـ) ، الذي سطع نجمه في إشبيلية مع بداية ظهور دولة بنى عباد، إذ كان بحسب تعبير ابن بسام "أول من تثنى عليه الخناصر، وتشير إليه القلوب والنواثر، وتفتقر إلى مالدیه الألباب والبصائر"، فكان أن لقي من حسد بنى عباد وسوء ظنهم فيه ما اضطره للهجرة إلى شرقى الأندلس "وأقام بها بقية عمره، بين جاهه ووفره ، وفى حصن حصين من سلامة سره وجهره" (٢).

ثم كان ما كان من أمر ابنه أبى مروان عبد الملك بن محمد "كما بلغ أشده حتى سد مسده، بل ما خلع قائمه حتى استوفى مكارمه، وورث مبادئه وخواتمه، ومال إلى التفنن فى أنواع التعاليم من الطب وغيره من العلوم ، فجمع شعاعها، واستوفى أجناسها وأنواعها ..".

(١) فى رسالة الشقندى فى المفاخرة بالأندلس (وترد فى نفع الطيب ج ٣ ص ١٩٣) يقول مخاطباً أهل المشرق "وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حى بن يقظان المقدم فى علم الفلسفة ومثل بنى زهر أبى العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبى بكر ثلاثة على نسق؟".

(٢) انظر عنه: الذخيرة ، ص ٢١٩ من القسم الثانى ، والمطرب ص ٢٩٣ ، والوفى ج ٥ ص ١٦ وبقية الملتصص ص ١٢. والصلة ص ٤٨٧ .

ولأبى مروان هذا رحلة مشهورة للمشرق و "تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان" على حد تعبير ابن دحية^(١) وناهيك بذلك مكانة وعلو شأن وذيوع شهرة .

ثم نأتى للجيل الثالث من هذه الأسرة النبيلة، وهو الوزير أبو العلاء زهر ابن عبدالملك. يقول عنه ابن بسام: "وهو وإن كان فى وقتنا البحر الذى لم يبلغ بالتحصيل، والصبح الذى لا يفتقر معه إلى دليل، فإنى أجريت ذكره فى نفس هذا الديوان نفسا، واجتلبت قطعة من شعره أقمتهما للأدب عرسا"^(٢) ويقول ابن دحية انه كان "وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه" .

وكتب التاريخ والأدب حافلة بما يكشف عن أخلاق أبى العلاء بن زهر، وعلو باعه فى ميادين العلم والأدب فى الذخيرة أن المعتمد بن عباد، بعد أن دالت دولته ووقع فى الأسر بأغمات ، لجأ لأبى العلاء بن زهر ليعالج بعض كرمياته من علة أصابتها، وكان إذ ذاك فى المغرب فـ "سارع إلى تأتى مطلوبه ، ولم يلتفت إلى ما كان سلف بين سلفيهما من معانٍ ، قضتها صروف الزمان، واقتضتها حماية السلطان، فلاطف علاجها ، ووقع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاء الطويل" وكانت بين الرجلين، على اثر ذلك، مراسلات شعرية غاية فى البراعة .

ثم نصل إلى أبى مروان: عبدالملك بن زهر (المتوفى سنة ٥٥٧)، صاحب كتاب "التيسير فى الطب" ، والذي يذكر أحيانا تحت عنوان: التيسير فى المداواة والتدبير، وقد شرقت شهرته وغربت ، حتى أنه "أثر أثرا بليغا فى الطب

(١) له ذكر فى العديد من المصادر مثل الذخيرة ، السابق، والذيل والتكملة ج ٥ ص ٣٧

وعيون الأنبياء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٤ .

(٢) الذخيرة ، السابق وانظر المطرب ص ٢٠٣ .

الأوربي ، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية " ^(١) واشتهر اسمه عندهم Avenzoar على نحو يكاد يدانى شهرة ابن سينا وابن رشد .

وقد نوه جونثال بالثيا طويلا بفضله، واعتبره سباقا في مجال الفصل بين الجراحة والصيدلة والطب الباطني، واعتبر كتابه "التيسير" - الذي أهده لابن رشد - "خير ما ألف العرب في الطب العربي ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية، وهو يأخذ بما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة".

هذه خطوط سريعة عن هذه الأسرة النبيلة التي اجتمعت فيها عبقرية العلم وعبقرية الأدب والفضل والنباهة جيلا بعد جيل .

ابن زهر (الحفيد) :

وهكذا نصل الى محمد بن عبدالمملك بن زهر، الملقب بالحفيد (ربما على اعتبار أن أباه كان وزيراً ، وكان جده وزيراً أيضاً ، وإلا فإن أبا العلاء بن زهر أحق بلقب الحفيد من أبي بكر هذا ...)

وأبو بكر بن زهر (٥٧٧-٥٩٦) يعد ولا ريب أحد جهابذة القرن السادس في ميادين شتى من أدب ولغة وعلم وسجايا. يقول عنه تلميذه ابن دحية: "وكان شيخنا الوزير أبو بكر - رحمه الله - بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين . كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة

(١) راجع مادة ابن زهر في دائرة المعارف الإسلامية وهناك دراسة جامعة عنه وعن أسرته (بالفرنسية) كتبها جورج كولان. ومن مراجعه : طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٦، والتكملة ص ٦١٦ والمغرب ج١ ص ٢٧ الخ ..

العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنتزلة العليا عند اصحاب المغرب (يقصد الموحدين) مع سمر النسب وكثرة الاموال والنسب "، ويقول عنه ابن الأبار فى "التكملة" إنه :

"انفرد بالإمامة فى علم الطب فى وقته، مع الحظ الوافر من الاداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدث بالمقامات عن أبيه عن الحريرى، وإليه كانت رئاسة بلده ، وكان لا يعدله أحد من رجالات الأندلس فى الحظوة عند الأمراء ورفعته للمكانة، سمحا جوادا نفاعا بجاهه وبماله، وما أكثر ما أثنى مؤرخوه على تدينه وحفظه للقرآن الكريم ولصحيح البخاري بأسانيده وامتونه، كما أثنوا على ثقافته الأدبية. وقد مر بنا أنه كان يحفظ شعر ذى الرمة كله

ولا جدل فى أن ملكة الحفظ كانت عنده قوية للغاية ، ففى خبر آخر تأتي إشارة إلى أنه كان يحفظ شعر المتنبي بتمامه !

ولم يحل تدينه أو مكانته الاجتماعية الشامخة دون خوضه فى فنون الشعر من غزل وخمريات ونحو ذلك، وقد ضاع شعر أبى بكر بن زهر ألا قليلا، فمن ذلك ماجاء فى "زاد المسافر" :

وموسدين على الكف خدودهم

قد غالهم شرب الصبوح وغالنى

مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم

حتى سكرت ونالهم مانالنى

والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها

إنى أملت إناعها فأماى!

وأيضاً قوله ، من "زاد المسافر" :

مغنى خصيب وباب مرتج أبدا

والدف والزق والابريق والطاس

هذى الخلاعة لا شئ سمعت به

فاستغنم اللهو إن الغمر أنفاس

ولى حبيب مليح الدل ذو غنج

حلو الشمائل ماقى لثمه باس

فإن تعذر أو عزت مطالبه

فالكاس والكيس : وسواس وخناس !

ولكن لابن زهر شعرا فى الاعتبار بالأيام ، ولعل ذلك من نتاج

الشيخوخة - وقد عمر ابن زهر طويلا - فمن ذلك قوله

الموت جزار بلا مديّة

لا أسد يبتى ولا ينقله

ولا شريفا من بنى هاشم

ولا وضيعا من بنى قندلة

ويقول :

لاح المشيب على رأسى فقلت له

الشيّب والعيب لا والله مااجتمعا

ياساقى الكأس لا تعدل إلى بها

فقد هجرت الحميا والحميم معا

وقد يتجسم الموقف عنده فى شكل "مشهد" يذكر من بعض الوجوه
بشعر يحيى الغزال، وقد أورد له صاحب وفيات الأعيان هذا النص:

إنى نظرت الى المرأة إذ جلّيت
فأنكرت مقلّتاى كل مارأتا
رأيت فيها شبيخا لست أعرفه
وكنّت أعهدّه من قبل ذاك فتى
فقلّت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان، متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة.
ان الذى أنكرته مقلّتاك أتى
كانت سليمة تنادى يا أخى وقد
صارت سليمة تنادى اليوم يا أبتا

ولابن زهر براعة فى الموشحات بخاصة، وفى ذلك يقول صاحب "المطرب":
"والذى انفرد شيخنا به وانقادات لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء خوله وأتباعه:
الموشحات، وهى زبدة الشعر وخلصّة جوهرة وصفوته، وهى من الفنون التى
أغرّبت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء
المشرق ؛ على أن للموشحات حديثا آخر، يطول فيه اللقاء مع ابن زهر ...

الموشحات الأندلسية

لعل الموشحات أهم الأشكال التي تفتقت عنها القريحة العربية ،
ففي سعيها الحثيث نحو الابتكار والتجديد فقد ظهرت قبلها وواكبها ألوان
أخرى متنوعة ، بالفصحى وبالعامية ، مثل المسطبات والدوبيت... الخ ،
ولكن كثيراً منها انطوت صفحته منذ أمد بعيد ، أو عاش مغمور الشأن
ضئيل الأثر ، أما الموشحات فإنها ازدادت مع الأيام رونقاً ، وشمل تأثيرها
العالم العربي كله ، بل والأكثر من هذا أنها تعدت نطاق العالم العربي ،
وظهرت على غرارها موشحات بالعبيرية ، فضلاً عن أن جبهة من علماء
الغرب تذهب إلى أن الموشحات (والأزجال) تمثل الركيزة التي بنيت
على أساسها أغاني التروبادور ، إلى غير ذلك من قضايا تتجاوز نطاق هذه
الكلمة .

والموشحات — في واقع الأمر — فن أندلسي خالص ، بمعنى أنه لم
يعرف في صورته الناضجة المكتملة إلا على أرض الأندلس ، وليس في
هذا الرأي ما يتعارض والقول بأن هناك أعمالاً ظهرت بالشرق ، يعدونها
بمشابة الإرهاص أو التمهيد لظهور هذا اللون الجديد ، الذي بزغت شمس في
آخريات القرن الثالث الهجري ، على يد شعراء مثل محمد بن محمود (أو
حمود) القبري ، ومثل مقدم بن معافي ، الذي ينتسب بدوره إلى قبيلة
إحدى القرى الواقعة قرب قرطبة .

ويضم كتاب «الذخيرة» لابن بسام أقدم إشارة وصلت إلينا عن
طور نشأة هذا الفن :

«وأول من صنع هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقها — فيما
بلغني — محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار من
الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعراب المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ
العامي أو العجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها
ولا أغصان» .

وهذه الفقرة خاصة بالمصطلحات غير محددة الدلالة ، وفيها إشارة عابرة إلى أوزان الموشحات الأولى وما كانت عليه من ارتكاز على مقطع عامي - شعبي ؟ أو اعجمي (بالرومانث ، لغة الأسيان الأصليين) ، وبها تلميح إلى شكل لا «تضمين» فيه ولا : «أغصان ، الصورة كلها تنسم بالغموض ، ومع ذلك فإنها تترك في النفس انطباعاً ما بأن شكل الموشحة القديم كان شديد البساطة ، ليس فيه هذا الإكثار من الأجزاء في الأفعال والأبيات ، الذي يلحظ في كثير من النصوص التي ألفت في فترات لاحقة ، ومعنى آخر إن صورة الموشحات في مرحلة تكوينها كانت أقرب إلى طبيعة الأغنية الشعبية من حيث بنائها على «الأعاريف المهمة غير المستعملة» ، وارتكازها على «اللفظ العامي أو العجمي» ، ولا خلاف على أن المقصود بكلمة «اللفظ» هنا ذلك المقطع الختامي ، الذي تصل فيه الموشحة إلى ذروة توهجها ، وهو ما أطلقت عليه تسمية الخرجة .

ويتلاقى هذا الفهم مع قول ابن سناء الملك :

«والخرجة هي أجزار الموشح وملحه ، وسكره ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية» .

ثم يجيء فريق من الشعراء يجددون في هيكل الموشحة ، منهم يوسف بن هارون الرمادي ، الذي يذكر ابن بسام أنه «أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز» ، ومنهم عبادة بن ماء السماء الذي «أحدث التصفير» - ؟ - «ذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز» .

وتكون النقلة التالية إلى عبارة شهيرة لابن خلدون تقول :

«وأما أهل الأندلس ، فلها كثر الشعر في قطره ، وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التبريق فيه القاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً وأسماطاً وأغصاناً وأغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريفها المختلفة ، فيسمون المتعدد منها بيناً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي

تلك الأغصان وأوزانها ، متتالياً فيها بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب .

وعند هذا الحد تكون قد تجمعت بين يدي القارئ معظم الخيوط المتصلة بهيكل الموشحة ومصطلحاتها ، ولكن ينبغي ملاحظة ما تتميز به الموشحات من مرونة ، كذلك فإن المصطلحات التي تتردد (التصغير، التصغير، التضمين - هل تعني كلها معنى واحداً ؟ - الأغصان ، الأسماط) مجال لاختلاف وجهات النظر إلى حد بعيد ، يضاف الى هذا ما يظهر في حقب لاحقة من مصطلحات جديدة مثل «الدور» وقدر موفور من التعبيرات المستمدة من الاصطلاحات الموسيقية ، بحكم الصلة الوثيقة بين الموشحات والغناء ، ولا يبقى إلا الإشارة لاستقرار دلالات «القبّل» و«الخرجة» ، فقد أفلتا - أو كادا - من دوامة الجدل والخلاف .

ولا تثير مسألة الموضوعات التي تعالجها الموشحات كثير الجدل ، وقد حسم ابن سناء الملك القضية عندما قال إنه «يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والملح والرثاء والهجو والمجون والزهد ، وما كان فيها في الزهد يقال له المكفر» وساق ابن خلدون رأياً مشابهاً : «وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد» ولكن هذه الأقوال لا تبين طبيعة التطور الذي طرأ على الموضوعات ، كما أنها لا تحدد مدى مناسبة هذه الموضوعات لطبيعة الموشحات .

والتصور الطبيعي أن الموشحات بدأت أول ما بدأت بمعالجة موضوعات الغزل والوصف والحنين والخمريات ، أي تلك الفنون شديدة الصلة بالموسيقى والغناء ، ثم جاء طور لاحق أخذت تعالج فيه بقية الأغراض المألوفة في القصائد ، كالمديح مثلاً (أما الرثاء والهجاء فإنها لم يشغلا إلا مكانة ثانوية) ، ولا يأتي - في العادة - إلا مسبقاً بتمهيدات غزلية أو وصفية أو نحو ذلك .

أما الموشحات الزهدية والدينية فإنها تمثل طوراً تالياً تبرز فيه أسماء عديدة مثل أبي مدين وابن عربي والششتري وابن الصباغ ... ، وعلى أيدي

هؤلاء يعود للموشحة جانب من انتمائها للبيئة الشعبية وللغناء، وتنداح هذه الموشحات في حلقات الذكر والمتروشين، منفلة في أحيان كثيرة من قواعد الفن وفصاحة اللغة، مرتحلة في ركاب هذه المواكب الهائلة في فجاج الأرض.

ولربما كان من الضروري أن تعرج هذه الكلمة على أعلام التوشيح في الأندلس، وهنا ستكون لنا أكثر من وقفة:

وقفة أولى تتناول مرحلة النشأة، حيث تبرز ثلاثة أسماء:

محمد بن محمد القبري، ومقدم بن معافي، ثم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، فالمصادر تؤكد أن هؤلاء هم الرواد الأوائل لهذا الفن الجديد، وإن كان الملحوظ أن ابن بسام يسوق اسم محمد بن محمود على اعتبار أنه «المخترع» الأول ثم يضيف:

«وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا» ومعنى آخر أن ابن بسام لا يذكر اسم مقدم بن معافي في هذا الصدد (بل أن اسم مقدم لا يرد على الإطلاق في جميع أجزاء الذخيرة)، بينما يجيء في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن سعيد، ونقل عن الحجارى صاحب «المسهب»:

«أن المخترع لها — للموشحات — بجزيرة الأندلس مقدم بن معافي القبري، من شعراء الأمير عبد الله بن الرواني، وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد».

ويبقى بعد هذا أن المعلومات عن محمد بن محمود وعن مقدم بن معافي من السندرة بمكان، وإذا كان الاسم الثالث — اسم ابن عبد ربه — ملء السمع والبصر بفضل كتابه «العقد الفريد» فإن صلته بفن التوشيح تبدو شديدة الغموض، والشيء المؤكد — على كل حال — أن المصادر لم تحتفظ البتة بأي نموذج من تأليف هؤلاء الرواد، مما يجعل الحديث عن الموشحات الأولى محفوفًا بالصعاب، لا يعتمد فيه إلا على بعض العبارات الموثقة في «الذخيرة» و«المقتطف».

ومن الطبيعي أن الصورة، في المرحلة التالية، تأتي أكثر وضوحاً، والإشارة هنا للجيل الثاني من الوشاحين الذي حمل الراية بعد جيل الرواد، وهذا الجيل الثاني يضم أسماء شهيرة في تاريخ الأدب الأندلسي مثل يوسف بن هارون الرمادي، وابن ماء السماء، وابن عبادة لكن تظل هناك — مع ذلك — ملامح يشوبها الغموض، فإننا لا نملك نماذج إلا لاثنين من سبعة وشاحين يذكرون في هذه المرحلة، فضلاً عن أن قدراً من الاضطراب يسيطر على المعلومات والنصوص المعروفة لهذين الوشاحين (ابن ماء السماء وابن عبادة)، وربما أدى المزيد من التنقيب في التراث الأندلسي إلى الكشف عن معلومات تزيد ما يرين من لبس في هذه الناحية.

ومن حسن الحظ أن الموشحات في المرحلة الثالثة — التي تستغرق فترة القرن السادس الهجري كله — تكون قد نضجت كل النضج، واستقامت لها كل قواعدها الفنية وبرزت أسماء رنانة مثل ابن بقي والأعمى التطيلي وابن زهر (الحفيد)، ولعت نصوص فياضة بالسحر والوهج
مثل:

بأيّ ظبيّ جُمي نكفُّهُ أسدُّ غيل
ومثل:

ضاحِكٌ عن جُمان سافرٌ عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواهُ صَدْرِي

وتنساب نغمات شاردة، يمتزج فيها الحوى والغزل والافتتان بالطبيعة كما في موشحة ابن زهر:

حيّ الوحوة الجلاحا وحيّ نخل لغبون
قطعه تهبه

أبيها الساقى اليك المشتكى كم دعوناك وإن لم تسمع

والخلاصة أن هذا الفن يصل الى قمة تمامه في القرن السادس الهجري، وقد احتفظت مجموعات مختلفة مثل «دار الطراز» و«توشيح التوشيح»، و«جيش التوشيح» بقدر وفيه من النصوص الجميلة التي تنتمي لهذه الفترة. وتجيء مرحلة تالية — في القرن السابع الهجري — تبدأ فيها الموشحات الصوفية في التدفق، وتظهر هنا وهناك بعض سمات الخروج عن القواعد المتفق عليها، على أن التقاليد الأصيلة تظل ماثلة عند عدد من البرزين في التوشيح، مثل ابن سهل الإشبيلي صاحب النص المعروف:

هل درى ظنبي الحمى أن قد حَمَى
قلباً صبَّ حَلْمَه عن مَكْنَسِ

وصاحب موشحة «رحب بضيف الأتس» التي لم تشتهر شهرة «هل درى»، ومع ذلك فانها لا تقل عنها جالا، فضلا عن أنها تختلف في النفس أثرًا يشبه — من بعض الوجوه — ما تخلفه قراءة «رباعيات الخيام» من أصداء وعبق وحرارة.

وآخر حلقة تشمل شعراء القرنين الثامن والتاسع، وهي حقبة تنتهي سنة ٨٩٨هـ بانتهاء الهيمنة الاسلامية على آخر مدينة أندلسية هي غرناطة، وهكذا يقدر لأصداء الموشحات أن ترتحل بعيدا عن أجواء الحمراء ومغاني غرناطة، كما ارتحلت من قبل عن قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس.

ولم تخل هذه المرحلة من وشاحين مجودين مثل أبي حيان الغرناطي وابن خاتمة الأنصاري وابن زمرك، على أن أشهرهم جميعا لسان الدين بن الخطيب الذي يتألق في فن التوشيح على نحو فريد، وبجسبه أنه صاحب:

جادك الغيث إذا الغيث همي

بازمان الوصل بالأندلس

وقد عارض فيها موشحة «هل درى ظنبي الحمى» لابن سهل، لكن

المعارضة فاقت الأصل شهرة، وأصبحت معلما بارزا من معالم فن التوشيح إلى يومنا هذا.

وللرجل نفسه نصوص أخرى لا تقل براعة عن «جارك الغيث» مثل موشحته:

قد حرّكَ الجُلجُلَ بازى الصَّبَاخِ والفجر لاخ

فيها غرابٌ الليلِ حُثَّ الجناخِ

ومن الغريب حقا أن موشحته:

رُبَّ لَيْلٍ ظَفِرتُ بالبدرِ ونجومُ السماءِ لم تدرِ

تجيء في نفع الطيب مصدره بد :

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى: ومما قلته من الموشحات التي انفراد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها «فهل طمس رسم الموشحات حقا في الحقبة التي عاش فيها ابن الخطيب؟ لا نظن، ولعل الرجل كان يقصد أن الأيام عدت على ذلك العهد الزاهي الذي كانت فيه الموشحات تتردد في أبهاء القصور، وبجالي اللهو والطرب، وأنه يقصد أن الأجيال اللاحقة لم تعد تبعد في هذا الفن نصوصا من نمط ما أبدع من قبل ابن بقی والتطيلي وابن زهر.

وهكذا تكون رحلة الموشحات على أرض الأندلس قد انطوت بعد فترة دامت زهاء خمسة قرون، استطاعت فيها أن تضيف لقيثارة الشعر العربي وترا جديدا قوامه التوهج والصفاء، والتعبير عن خوالج النفس، والإحساس العارم بالحب والطبيعة والحياة.

نماذج من الموشحات

- عبادة بن ماء السماء (التوفى نحو سنة ٤٢٠ هـ):
 - من ولسي في أمة أمرا ولم يعدل
 - حسب المها عبادة من كل بسام السوازي
- ابن عبادة القزاز (التوفى نحو سنة ٥٠٠ هـ):
 - رح للسراج وبماكر بالمعلم المشرف
 - كم في قلدود البيان تحست اللمم
- ابن اللبانة (التوفى سنة ٥٠٦ هـ):
 - شاهدي في الحب من حرقني أدمه كالجمر تخذرف
 - هلا عدولي قد خلعت العذو لا اعننذار
- ابن أرفع واسه (أوائل القرن السادس الهجري):
 - من علق الحسوطا في أذن الشعري
- ابن لبون (أوائل القرن السادس الهجري):
 - من أطلع البدر في كمال غممن اعتدال
- الكيت البطليوس (النصف الأول من القرن السادس الهجري):
 - لاح للروض نلى غر البطاح زهزر زاهر
- ابن عيسى المرسي الحجازي (النصف الأول من القرن السادس الهجري):
 - من في بطبي ربيب بصيد أمد الشياهي
- الأعمى التطيلي (التوفى سنة ٥٢٥ هـ):
 - دمع مطوح وطلوح حرار مساء ونسار
 - هساحك عن جمان سافر عن بسدر
- أبو بكر الأبيض (التوفى بعد سنة ٥٢٥ هـ):
 - من من عينيك كأس المدام بامسنى المسهم
- ابن الزقاق (التوفى سنة ٥٣٠ هـ):
 - خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي هما

- ابن رجم (المتوفى نحو سنة ٥٣٠ هـ):
- نسيم الصبا أقبل من نجد لقد زادنى وجددا على وجد
- أبو بكر بن بقمي (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ):
- ساعدونا مصباحينا نرتشفها قد ظمينا
- مالى شمول إلا شجون
- أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ):
- ذهب شمس الأصيل فسطحة النهار
- أبو عبد الله بن شرف (المتوفى سنة ٥٧٠ هـ):
- يسارية العقيد من يفلد
- ابن مالك الترقطى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ):
- ماذا حملوا فؤاد الشجى يوم ودعوا
- ابن زهر الخيد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ):
- أيا الناقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم نسمع
- حى الوجوه الملاحا وحى سرد المعيون
- محيى الدين بن عربي (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ):
- عندما لاح لعينى المتكا ذبت شوقا للذى كان معى
- ابن سهل الإشبلى (المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ):
- هل درى ظمى الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكس
- ابن خاتمة الأنصارى (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ):
- قسم هاتها قهوة كدمع مهجور
- لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):
- يا حادى الجمال مرج على سلا
- ابن زمرك (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ):
- نسيم خرناطة عليل لكنه يبرىء العليل
- اللخمي الغرناطي (من شعراء القرن التاسع الهجرى):
- حياك بالافراح داعي الصباح قم لاصطباح
- المنصور السعدي (المتوفى سنة ١٠١٢ هـ):
- عطير الأرجاء لما نسا شمأل الصهباء عد الغلس

● عبادة بن ماء السماء (نحو سنة ٤٢٠ هـ):

١

مَنْ وُلِيَ فِي أُمَّوْ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يُعْزَلْ إِلَّا لِحَاطِئِ الرِّشَاءِ الْإِكْحَلِ

جُرْتُ فِي (١) حَكِيمِكَ فِي قَتْلِي يَا مُشْرِفُ
فَانصِفْ فَوَاجِبٌ أَنْ يَنْصِفَ الْمَنْصِفُ
وَأَرَأَيْتَ فَإِنَّ هَذَا الشُّرْقَ لَا يَرَأُفُ

عَمَلٌ قَلْبِي بِذَلِكَ الْبَارِدِ السَّلِيلِ بِنَجْلِي (٢) مَا بَفَوَادِي مِنْ جَوِّي مُشْعَلِ

إِنَّمَا يَبْرُزُ كَيْ يَوْقِدُ نَارَ الْفَتَنِ (٣)
مَصْنُورًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ
إِنْ رَمَى لَمْ يُخْطِ مِنْ دُونَ الْقُلُوبِ الْجُنُنِ
كَيْفَ لِي تَخْلُصَ مِنْ سَهْمِكَ الْمُزْتَلِ فَصَلِّ وَاسْتَبِقْنِي حَيًّا وَلَا تَقْتُلِي

يَا سَنَا الشَّمْسِ وَيَا أَبْهَى مِنَ الْكُوكَبِ (٤)
يَا مُتَى النَّفْسِ وَيَا سَوْلِي وَيَا مَقْطَلِي
هَذَا أَنَا حَمَلٌ بِأَعْدَائِكَ مَا حَمَلٌ بِي
عُذَّلِي مِنْ أَلَمِ الْهَيْجَرَانِ فِي مَعَزِلِي وَالْحَلِّ فِي الْحُبِّ لَا يَسْأَلُ عَمَّنْ بَلِي

● ترد في «التوشيح» ص ١١٣ و«الفوات» (ط إحصان عباس) ١٥١/٢
منسوبة لابن ماء السماء وفي «الوافي» ١٨٩/٢ منسوبة لابن القزاز

(١) توتيع : جزت

(٢) التوشيح : بنجل

(٣) الوافي : يرد. الفوات : ترز. توقد

(٤) الوافي : وباسني

أنت قد صيرت بالحسين من الرشد غنى
 لم أجسد في طرفي (٥) حبك (٦) دينا على
 فاتشد وان تشا في قتلي شيئا قسنى
 أجمل ووالتي منك يد المفضيل (٧) فهت لي من حنات الزمن المتبيل

ما اغشذى طرفي إلا بسنا ناظرينك
 وكسدا في الحب ما بي ليس يخفى عليك
 ولسدا أئشد والقلب رهين لديك:
 يا علي سلطت جفنيك على مقتلي فأتق لي قلبي وجمد بالفضل يا مولى

٢

حُبَّ التَّهْمَا عِبَادَةَ من كلِّ بسام السَّوَارِ
 قمرٌ يطلع من حسنِ آفاقِ الكمالِ حنةٌ أبدع
 لله ذاتٌ حسني مليحةُ المُحَيَّا
 لها قوائمُ غصني وشئفُها الشَّرِيَّا
 والشفرُ حُصبٌ مُزِينٌ رُضَائِهِ الحُمَيَّا
 من رشيفه سمادة كأنه صيرفُ العِقَارِ
 جوهراً رصنع يسقيك من حلو الزَّلَالِ طيبَ المَرْتَعِ
 رشيقَةُ المعاطِفِ كالنصنِ في القَوَامِ
 شهديَةُ المَرَاشِفِ كالأذُرِ في نِظَامِ
 دعصيةُ الروادِفِ والخضُرُ ذو انضمامِ
 جِوَالَةُ القِلَادَةِ محلولةٌ عَقْدُ الإزَارِ
 حسنها إبدع من حسنِ ذِيَاكَ الغَزَالِ أَكحِلِ التَّدَمُّعِ

(٥) الفوات : طرق (٦) الوافي : حبك (٧) الوافي : ندى

• ترد في «الفوات» (ط احسان عباس) ج ٢ ص ١٥٢ ولم نجدها في اي مصدر آخر

لسيلية الذوائب ووجهها نهاز
مصقولة الترائب ورشفتها عتاز
أصداعها عتارب والخذ جلتاز
نساديست: وافوادة من غادة ذات اقتدار

لحظها أفتغ من حد مصقولة الترائب من الفتى الأشجع

سَقَرَجُلُ الشُّهُودِ فِي مَرْمِرِ النُّصُودِ
يُزْهِقِي عَلَى الْعَقُودِ مِنْ لَذَّةِ الشُّحُودِ
وَمَقْلِقُ وَجْهِهِ مِنْ عَمَادَةِ مَسْفُودِ
حَبْنِي لَهَا عِبَادَةَ أَعْرُودٍ مِنْ ذَا الْفَخَارِ
برشاً يرتغ في روضِ أزهارِ الجمالِ كلما أيتغ
عفيفةُ اللذبولِ نقيبةُ الشُّبابِ
سلايةُ المُقْبُولِ أرقُّ مَسْنِ شَرَابِ
أضحى بها نحولى في الحُبِّ من عذابي
في النومِ لى سُرَادَةِ وَحُكْمِهَا حُكْمِ اقْتِدَارِ
كلما أمنغ منها فإن طيفَ الخيالِ زارنى أمتغ

• • •

• ابن عبادة القزاز (محرسة ٥٠٠ هـ)

نوح للراح وداكر	بالثقليم التثووك	غبقوا وضبح	على الوتر الفصيخ
	ليس اسم الخمر عندي	مأخوذاً فاعلم	
	إلا من خاء الخد	وميم التبتم	
	ولاه ريق الشهد	العاطر القم	
مكّن للهّم هاجر	ويصل هذي الحروف	كمي تغدو وتروخ	بجسم له روح
	بالله سقنيها	في وُدّ الوائق	
	فإن منه فيا	شبة الخلائق	
	من أعدم الشيبا	في المجيد الباق	
له من المفاخر	تليد وطريف	دوخ من عهد نوح	ودروضة تفوح
	هل تغشّن المدائح	من كلّ ماديخ	
	إلا على التجاحج	بنى صمادخ	
	فإبهم مصايخ	على سوانخ	
أكارم أكابر	صيد ثم الأنوك	حازوا المجد الصريح	فخضروا بالمديح
	محمد بميذ	مرأته قريب	
	وحولته جنودا	من آله نجيب	
	كأنهم أسودا	في حومة الخروب	
إذا سلوا البواتر	فالتخين والخثوك	والنصر والفتوح	وآية تلوح
	إذ لاح ابن ممن	في جيشه اللجج	
	ونادي كل قرن	باسمه في اللجج	
	فالتيجبا تغني	والسيف قد طرب	
ما أملت العساكر	وترتيب الصفوف	والأبطال نصيح	الوائق ياملح

• دار الطراز، ص ٧١، وأشار الى الخرجة ص ٣٢، ونسبها لعبادة.

كَمْ فِي فِدْوِدِ الْجَبَانِ نَحْتِ اللَّيْمِ مِنْ أَقْرِ عَوَاطِ
بِأَنْمَلٍ وَيَسَّانٍ مِثْلِ الْعَتَمِ لَمْ تَنْبَرِ لِعَقَاطِ

هَنَّ الْقَلْبَاءُ الشَّمْسُ	فَنِيضُهُنَّ الْقَيْغَمُ
مَا إِنْ هَا مِنْ كُنْشِ	إِلَّا الْقَلْبُوبُ الْهُيْمُ
الْقَرَبُ مِمَّا عُرِشِ	وَالْبِعْدُ عَمَّا مَاتَمُ
تَلِكِ الشِّفَاءُ الثَّمَعِ	يَحْسِي بَيْنَ الْمُفْرَمِ
هَا لِحَالِ نُفْسُ	تَرْوِي لِي مِنْ يَسْنَمِ

بِأَعْيُنِ الْفِرْلَانِ وَتَبْتَسِمُ عَنْ جَوْهَرِ الْأَسْمَاطِ
قَضَى لَهَا الْفَيْرَانُ أَنْ تَكُنَّ فِي مُضْتَرِ الْأَتْيَاطِ

أَهْوَى رِثَاءَ سَاحِرَا	هَوَاةَ لِي مَا أَقْتَلَا
فَدَقَتْ طَائِرَا	أَلْحَاطُكِهِ قَلْبِي وَلَا
وَلَمْ يَكْ سَاحِرَا	عَلَى هَوَى مَا عَلَلَا
لَمَّا غَدَا قَادِرَا	غَدَا قَلِيلَ التَّمَدُّدَا
بِأَحَاكِمَا جَائِرَا	ظَلَمْتَ مِنْ لَا ذَنْبَ لَا

خَفَّ سَطْوَةَ الرَّحْمَنِ إِذَا حَكَّمُ بَيْنَ الْبِرِّي وَالْحَاطِي
سَطَوَتْ بِالْهَيْبَتَانِ ظَلَمًا وَلَمْ يَسْتَنْصِرِ بِأَسَاطِي

بِأَوْ بَحِّ قَنْ تُرْقَا	إِلَى حَبِيبٍ قَدْ تَلَا
قَضَى بِأَنْ يُفْرَقَا	فِي الدَّمْعِ قَنْ قَدْ أَمَحَلَا
كَلِمَا وَأَنْ يَخْفَقَا	مِنْهُ الْفِرْوَادُ الْمَبْتَلَى
كَأَنَّهَا عَمَلَقَا	مِنْهُ عَلَى تَلِكِ الطُّلَى
فَقَلْتُ مَسْتَنْطِقَا	قَنْ ذَا الَّذِي أَهْدَى إِلَى

• ترد في «دار الطراز» ص ٦٠ (ومقطع منها ص ٢٩) وجاء قسم منها في «ازهار الرياض» ٢٥٤/٢ و«نفع الطيب» ٣٨٠/٤

فَوَادِي السَّخْفَقَانِ فَقَالَ قُمْ فَلتَنْظُرَ فِي الشَّاطِي
إِلَى بَنُو السَّوَانِ عَذَاكَ تَمْ وَاسْتَخِيرَ أَقْرَاطِي

أَمَا تَرَاهَا مَثُونِ عَلَى قَنَاهَا خَافِقَةٌ
فِي جَارِيَاتِ تَجُونِ مِثْلَ الْجِيَادِ السَّايِقَةِ
إِنْشَاءً قَمْنِ فِي المَحُونِ يُنْشِي السَّحَابَ الوَادِقَةَ
سَمَتْ عَلَى النُّجْمِ ظَلُونِ مَهَا فَرُوجٌ بِسَايِقَتِهِ
إِنْ السُّرِيَا تَقُونِ وَهِيَ لِصَادِقَتِهِ

مَا فَوْقَ هَذَا المَكَانِ مِنَ الهِمَمِ فِيهِ بَرَى مَنَاطِي
تَمَّتْ عَلَى كِبْوَانِ مِنْهُ القَتَمِ وَالمُشْتَرَى مَوَاطِي

أَفْلَاكَ قُلُوبِكَ تَنْبِيْزِ سَمَادَةٌ لِلْمُسْلِمِيْنَ
تَسْرِي الذَّجِي وَتَسِيْزِ بِالْفَتْحِ وَالنَّهْرِ المُبِيْزِ
يَسُوهُ بَعْدَ التَّنْذِيْزِ مَهَا هَسْبَاحُ المَنْذَرِيْنَ
تُخَسِّدِي بِمَدْحِ الأَمِيْزِ إِلَى بِلَادِ المُشْرِكِيْنَ
أَنْسِي نَسَحًا فَتَطِيْزِ بِمِثْلِ أَشْفَارِ الجُفُونِ

وَقَبِيْزَتِمْ الخَرْصَانِ قَدْ انْتَقَمَ كَأسْطَرِ الأَمْشَاطِ
وَالْبَحْرُ كَالْبِرْكَانِ قَدْ اضْطَرَمَّ بِمُنْقَرِ الأَنْفَاطِ

وَمَهْرَجَانِ لِنَهُ يَوْمَ أَنْبَقَ مَنَظَرُهُ
بِحُرِّ حَكِي رَمَلُهُ مِنْ كَلِّ طَيْبِ عُنْبَرُهُ
وَالشَّاطِ قَدْ حَلَهُ عَمَمٌ وَعَسْكَرُهُ
مَرْكَبِيَا رَجَلُهُ فُلُكَا عَكَّتْهَا هُمَرُهُ
فَقَالَ عِبْدُ لُهُ مَنَسْحِيْنَ مَا يَبْصُرُهُ:

مَا أَمْلَحَ المَهْرَجَانِ رَمَلِ يَتِيْمِ كَالعَنْبَرِ لِلْمَوَاطِي
وَالفَلَكِ كَالعِقْبَانِ وَالمَعْتَصِمِ بِالعَسْكَرِ فِي الشَّاطِي

• ابن اللبانة (المتوفي سنة ٥٠٧ هـ) :

• ١

شاهيدي في الحُبِّ حُرْفِي أدمع كالجمير نندرك

تمجز الأوصاف عن قَمَر (١)
خِذَه يدمي من النظرِ
بشْرٍ بِسْمُو عِلى البَشْرِ

قد براهُ اللهُ من علقه ما عسى في حسيهِ أصف

كيف للصبِّ الكئيب بقا
والكُرى عن جفنيه أبقا
هل يطيقُ الصبرَ من عَشِقَا

شأدناً يرمي من الحدق أسها قلبي لها هدف

ياأولى التنفيد وكم (٢)
أنا لا أصفى لنصيحكم
في ثلاث فد عصيتكم
غسقُ داج على قَلق في قضيب زانه الهَيْث
بأبي من فاق شمس ضحى
وكسا بذر الأجي مُلحا (٣)

• ترد في «التوشيع» ص ١٣١ وفي «عقود الآل» مخطوطة «الاسكور يال - ورقة ٩ وفي «العذارى المائسات» وقال إنها لجمال الدين بن نباته وقيل لابن عزلا (ولعل الاسم الاخير تحريف لابن غرلة الذي كان ذكرناه من قبل وليست هذه الموشحة من جنس ما وصل الينا من موشحاته، اما ابن نباته فان ديوانه لا يتضمن هذه الموشحة ولا حتى معارضة لها).

(١) توشيع : قرى (٢) توشيع : التنفيذ (٣) التوشيع : لها

فدليلي فيه قد وضحا
لوجود الشمس (٤) في الأفق غدم والسدر ينكيف

رُب راض بعد ما غضبا
زارني في غفلة الرقبا
عندها غنيت: واطربا
ياحبيباً بات معتني ها أنا بالوصلي مفترفا

٢

هلاً عدولي قد خلعت العذار لا اعتذار عن ظبا الإنسي وشرب القفار
ما العيش إلا حُب طبي أنيس
مهفهف أحوى وحت الكووس
من قهوة تحكي شعاع الشمس

كأنها في كأسها إذ تدار شعلة ناز يقتلها الإبريق قبل السواز

شيثان قلبي فيما ذو غرام
القول بالسفيد وشرب المدام
فلست أصفي فيها للوأم

لا والدي نوح تاج الفخار بحر البحار بيحرجدواه وحامي الديار

المليك المأمون ذو المكرمات
الواحد الفرد الجزيل الصفات
كم مادح أحيا وكم قذ أمان
نهل يئمناه علينا بجاز ثم اليسار تجلودجى العُربيدل اليسار

(٤) عمود : الدر

• النص في «حيس البوسيج» ص ٧٠

فسي اسمه للنصر والفتيح فان
قد عم اهل الارض ظمراً نوان
أصبح في الجود بمير مثال

أنجد ذكره الكرم وغاز في الأمصار حتى حدث فيه حداً القطار

وغادة تشكو بقاء الخليلين
عُدّتها تبكي ويوم الرحيلين
بصفية البحر وطلعت نقولن

يسافرجوني ككرس بون امار ليش الفرار وlish دمار(1)



(1) الخرجة فيه : «اما الفرار وليس دمار» وهي - ولا شك - مستورة، ولا تنفق مع بقية الاقفال. وفي نسخة حسن حسني عدالوهاب (صفحة ١٤).
يسافرجوني ككرس بون امار الفرار ليش وlish دمار
ولا تستقيم على هذه الصورة

• ابن رافع راسه (أوائل القرن السادس الهجري؟):

مَنْ عَلِقَ الْفُرْطَا فِي أذنِ الشَّعْرَى وَأَكْفَفَ المِرطَا القُضْنَ النَّضْرَا
الحِمْزُ مَرَجُومٌ عِنْدِي وَمَأْتُومٌ
وَالطَّرْفُ ظَلُومٌ وَالقَلْبُ مَظْلُومٌ
بِأَبِي رَيْمٍ بِمَشْفَقَةِ الرَّيْمِ

لم يأكل الخَمَطَا ولا رعى السَّدْرَا ولا رعى الأُرطَى (١) مَد سَكَنَ القَضْرَا
بِاقِوْمٍ بِي تَيَاهِ لِمَاهِ مَعْسُومٌ
المَجرُومُ مَجرَاهُ (٢) وَالذَّنْبُ مَحمُومٌ
بِدرِي الَّذِي يَهْوَاهُ أَنَّهُ مَقْتُومٌ
أَمَانِي غَبَطَا (٣) وَمَا اتَّقَى الوِزْرَا لَمْ أَعْرِفَ الشَّرطَا - فَكُنْتُ مُغْتَرَا
قَد هَمْتُ فِي وَشَنَانِ أَشَدَّ الشَّرَى بَشِي
بِلِحْظِهِ القَتَانِ فِي مَعْرَكِ الحَرْبِ
عَلَى الظُّبَى سُلْطَانِ بِقَدْرَةِ السَّرْبِ
سَبْحَانَ مَنْ أَعطَى جَفْوَنَكَ الشَّعْرَا وَالقَبْضَ وَالبَسَطَا وَالنَّهْيَ وَالْأَمْرَا
عَلَيَّ مَا أَعْدَى سِيوفَ عَيْنِيكَ
كَمْ أَنَبَ الأَعْدَا بِمَعْدِلِهِمْ فِيكَ
وَالحَسَنُ قَد أَبْدَى لِحْذِي بِخَدَيْكَ
بِأَحْرِفٍ خَطَلَا لَمْ تَعْرِفَ الحِجْرَا أودَعَرْنَا نَقْطَا بِالْحِجْرِ كِي تُفْرَا
ضَنْ يَاسَعَادِي (٤) وَالشَّمْسُ نَحْكِيهِ
مِنْ بَعْدِ مِيعَادِ أَبْدَى الرِّضَا فِيهِ
فَكَانَ إنْشَادِي خَوْفَ تَجَنُّبِهِ
حَبِيبِي قَد أَبْطَا (٥) مِنْ أَمْسَكَ البَدْرَا عَنِي لَقَدْ أَخْطَا وَأَشْغَلَ السَّرَا

• ترد في «توشيع» ص ١٥١ ونسبها لابي الحسن علي بن عبدالغني الحصري، وهي في

«جيش» ص ٧٤ ضمن موشحات ابن ارفع راسه، ورجحنا انها له.

(١) جيش: ولا درى الابطا (!) والارطى: شجر الاثل

(٢) توشيع: هجيره

(٣) جيش: أمانى غبطا. وغبطا: نخرا

(٤) جيش: ياسعاد

(٥) جيش: حيث قد ابطا (!).

• ابن لبون (أبو عيسى) - أوائل القرن السادس الهجري:

من أطلع البدر في كمالٍ غصن اعتدالي

بمهجتي شادق غريب
بجوز (١) حكا ولا يُجِيرُ
وما سوى أدمعي نصيرُ

تفعل عيناه بالرجالِ فعمل القوالِ

غلقته أو طفا كنجيل (٢)
بمسه الغصنُ اذ يميلُ
تجولُ في نغره شئون
يمج في نغره لآلِ بَرْد الزلالِ

يا لها المماذك الخليلي
بي من بني الليث بابلي
قلبي به مغرم شجني

عذلك عندي - إذ لست سألِ من المُحالِ

كم قلت لا أوعي بحبنة
لطول إعراضه وعتبنة
حتى إذا لاح صبحُ قرينة

• النص في «جيتس التوشيح» ص ١٦٨
(١) في الاصل: بجوز حكا (٢) في الاصل: اوطف

أبديتُ من عِزة الجمالِ (٣) دَلَّ السُّـوَالِ

مازلتُ أشكوه ببعيدة
حنى أرعوى حافظاً لعهدية
كأنه إذا أتى لسوعية

يختالُ في ظلمة الدلالِ . طيفُ الخيالِ

لله يومٌ به نسمنا
راق أصيلاً فراق حسنا
عاتبته مازحاً فغنى

إياك يغررك صرف مال (٤) يامن بدا لي

• • •

(٣) و الأصل . عزة الجمال (٤) و الأصل صرف مال نافذ د ر

● الكهين (أبو عبد الله محمد بن الحسن البطليوسي) - النصف الأول من
القرن السادس الهجري :

زَقَرُ زَاهِرُ	لاح للروضِ على عُمرَ البَطَاخِ
نَوْرُهُ السَّنَاضِرُ	وئنا جيداً مُنْعَمَ الأَفَاخِ
أرْجُ عَاطِرُ	زارني منه على وجهِ الصَّبَاخِ
أَنَا عَقِيدُ	نشرَ الظِّلَّ عليها حينَ قَاخِ
وجنةُ الوَرْدِ	حببذا البشرُ لي عندَ افتتَاخِ

ملاءَ أجفَانِي	يضحك الروضُ مسائلَ السَّحَابِ
فوقَ غَدْرَانِي	ومشتُ فيه لآليءِ الحَبَابِ
عندَ تَهْتَانِي	فتراه كيفَ (١) يكشِفُ النَّقَابِ
وسطَ الرَّعْدِ	بنتهيَ طولُ تناسُجِ الرِّبَاخِ
سَلَّ من غِنْدِ	وتسرى البرقُ كصارمِ مُشَاخِ

رقصت وسطَ رياضِها الغُصُونِ	رقصت وسطَ رياضِها الغُصُونِ
وأرنا من لطائفِ المَجُونِ	وأرنا من لطائفِ المَجُونِ
فنسينا عندَ وشيهِ المَظُونِ	فنسينا عندَ وشيهِ المَظُونِ
كنجومٍ أطلعتُ والجُوصَاخِ	كنجومٍ أطلعتُ والجُوصَاخِ
فسمى الناسُ بالسنيَ فِصَاخِ	فسمى الناسُ بالسنيَ فِصَاخِ

● برد النص في «حيس التوضيح» ص ٩٤.

(١) كذا في المطوع، ولعلها: حين

(٢) صعاك: صنعاء

واخلى العُذرا
مزة صَفيرا
عَتَّقَتْ دَهرا
ناعِمُ القَدِّ
شيب بالشَّهْدِ

وتشَنَّبَها
حين يُسَوِّدُها
ومفانها:
قد كسر نهدي
ونثر عقدي

فاغتني ما قد صفا من الزمان
واشرب الراح على سجع القيان
واغتنيها من سلافة دنان
كأسها جسم طفلة رداخ
تمزج الراح بريقها الفراح

وفتاة فتنت بحسبها
تشتكي طول جفاء خديها
وتغني برفيع لحنيها
ذبت والله أسي نطلق صياح
وعمل لي في شفيفاتي جراح

• • •

• ابن عيسى المرسي الخباز (ابو الوليد يونس) : النصف الأول من القرن السادس الهجري :

مَنْ لِي بِظَمِي رَيْبٍ يَصِيدُ أَثَدَ الْفِيَاضِ (١) لَسَى بِسَدِينِي لِمَا أَمَلْتُهُ لِلْقَاضِي

جَعَلْتُ حَقِّي مِنْهُ بِنِ الرَّجَا وَالتَّمَنِّي
لَمْ أَظْهَرِ الْيَاسَ عَنْهُ لِمَا أَطَالَ التَّجَنِّي
بَلْ قَلْتُ بِأَقْلَبُ صُنَّةً لَدَيْكَ عَنِ سَوْءِ ظَنِّي

وَأَنْتَ يَا نَفْسِي ذَوْبِي وَيَا مَطِيئًا اعْتَرَضِي نَفْدًا بِمَا شِئْتَ حُكْمًا إِنِّي بِحَكِيمِكَ رَاضِي

مَا حَالَ قَلْبٍ لَدَيْكَ لَا تَنْقُضِي حَسْرَاتِهِ
بِشُكْرِ جَوَاةِ السَّيِّئِ وَلَيْسَ تَجْدِي شِكَاةً
مَهْلًا فِي رَاحَتِكَ حَسِيَاتِهِ وَمَا تَأْتُهُ

يَا مَرِيضِي وَطَبِيبِي بِفِيكَ بَرَاءُ الْبِرَاضِ وَمَنْكَ قَدْ ذَبْتُ سَقْمًا فَلْتَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضِي

يَا مَنْ يَنْفِرُ ظُلْمًا مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بِصَابِرٌ
مَاضِرٌ إِذْ ذَبْتَ سَقْمًا لَوْ لَمْ تَكُنْ لِي هَاجِرٌ
رَفَقًا فَبِي مِنْكَ أَلْمِي وَسِنَانٌ سَاجِي النَوَاطِرُ

رَامَ بِهِمْ مَصِيبٌ مِنَ الصَّحَاحِ الْبِرَاضِ بِرَنُوفِ رَيْسِلِ سَهَا وَالْقَلْبُ فِي الْاِعْتَرَاضِ

• ترد كاملة في «جيس التوشيح» ص ١٤٧ وهي في «عدة الجليس» - بدون ذكر قائلها - ونقل د. الأهواني «الزجل في الأندلس» ص ١٨ المطلع والخرجة عن مقال غومت (الأندلس سنة ١٩٥٢) الخاصة بالخرجات الأعجمية في مجموعة ابن بشري (١) جيس : بسطوباسد

مَنْ لِي بِتَفْتِيرِ جَفِينِهِ
إِنْ مَسَّرَ ثَانِي عِطْفِهِ
أُورَمْتُ إِدْرَاكَ وَصْفِهِ
وَالْمَوْتُ مِنْ لِحْظَاتِهِ
فَالْحُسْنُ فِيهِ بِذَاتِهِ
أَعْيَتَنِي بَعْضُ صِفَاتِهِ

يجولُ لحظُ الكئيبِ من خدّه في رياضِ لكن عن القطفِ تُختمى بمهفاتِ مواضٍ

لله ظبيّةٌ خِذِرٍ
بننتُ ثلاثَ عشرٍ
تقولُ في حالِ سُكْرِ
قد روعتُ بالفراقِ
تُسبِلُ دمعَ المآقي
لأقمها في اشتياقِ

بامم مو الحبيب نيبش ان نرتواض غار كفري ياما اتن يجنال للشاوض



• الأعمى التطيلي (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ):

دَفَعُ سَمُوحَ (١) وَضَلَّوْعَ حِرَّازَ مَاءٍ وَنَارٍ مَا اجْتَمَعَا إِلَّا لِأَمْرِ كِبَارِ

بئس لعنري ما أراد العذون
عُمرٌ قصيرٌ وعناءٌ طويلٌ
بازفرائت نطقت عن غليل (٢)
ويادموعاً قد أصابت قيبيل (٣)

امتنع النومُ وشَطَّ المَرَّازُ ولاقرازُ طرت ولكن لم أصادف (٤) مطار

يا كعبيةً حجَّت إليها القلوب
بين هوى داعٍ وشوقٍ مُجيبٍ
دعوة (٥) أواه إليها مُنِيبٍ
لبيك لا ألوي لقول الرقيب (٦)

• الموشحة في جيش ص ١٠٦ وديوان الأعمى التطيلي ص ٢٦١
والتوشيع ص ١٠٦.

(١) الديوان: مَفُوح.

(٢) توشيع: عليل.

(٣) الديوان: ويا دموع قد أعانت.

(٤) ط الديوان: أصادق.

(٥) جيش: حسنت. الديوان: حسة.

(٦) الديوان: لبك الا الهو وقل للرقيب. جيش: لبك لا الوى.

جد لي بحج (٧) عندها واعتماد ولا اعتذار قلبي قدي ودموعي جمار

أهلاً وإن عرّض بي للمنون
بمائس الأعطاف ساجي الجفون (٨)
ياقسوة يحسبها الصب لئن
علمتني كيف نساء الظنون (٩)

مذبان عن تلك اللبالي الفصاز دمي غراز (١٠) كاتنا بين جفوني غراز (١١)

حكمت مولى جار في حكمه
أكنى به لا مفيحاً باسمه (١٢)
وأعجب (١٣) لأنصافي على ظليه
واسأله عن وضلي وعن صريره

ألوي بحظي (١٤) عن هوى واختياز طوع النفاذ وكل (١٥) أنس بعده بالخيار

(٧) الديوان والحس : مرني .

(٨) في جيش : وسن الجفون . وفي الديوان يشير المحقق «الى أن الأصل لم يكن واضحاً ، ولعله : «فما بسر ماتصون الجفون» .

(٩) في الديوان والجيش : كيف أسوء .

(١٠) الديوان والجيش : نومي غراز .

(١١) الجيش : بين جفوني عراز .

(١٢) الوشيع : أهذي به .

(١٣) الديوان والجيش : فاعجب .

(١٤) الديوان : بحق .

(١٥) الديوان والجيش : فكل .

لا بُدَّ لي منه على كلِّ حال
مولى تجننى وجففا واستنطبان
غادرني زهنَ أسي واعتلال

ثم شدا بين الهوى والدلال :

ما والحبيب دموا صار مادر شنار بتفيس رامش كف دمومار (١٦)

• • •

٢

هاجك عن جمان سافير عن بذر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجند شقي ما أجند
قام بي وقعد باطش مُنيد
كلا قلت قد قال لي أين قد

(١٦) كذا جاءت الخرجة في الديوان (وهي بالأعجمية أي بلغة الرومانت) وترد

في التوشيع «مر الحبيب انفرم دمومار.. كان دشنار.. تنفس اميت
كسادمواتار» وفي الجيش «ما والحبيب دمومار.. فادر شنار.. بتفيس
آست كساد مومار» وأوردها د. احسان عباس في «تاريخ الأدب
الأندلسي» ج ٢ ص ٢٤١ نقلا عن مقالة عن الخرجات كان الأستاذ
غومث قد نشرها في «الأندلس» سنة ١٩٥٤ ، وفيه : موا الحبيب انفرم
ذي مومار كن دشتر ننفيس اميب كسد نوليفر ومعناها «حبيبي مريض
بسبب الحب - وكيف لا يكون ذلك - ألا ترى أنه لن يرجع إلّى أبداً» ؟

• انظرها في «ديوان الأعمى التطيلي» ص ٢٥٣ وترد في «المغرب» ٤٥٣/٢ و«دار
الطراز» ص ٤٣

وانثنى خوط بان (١) ذا مهز نضير (٢) عابثته يدان (٣) للصبيا والقطير
ليس لي منك بؤد (٤) خذ فوايدي عن بؤد
لم تدع لي جملد غير أفي أجهد
مكزع من شهذ واشتياقي بشهذ
مالينت الدنان ولذالك النفر أين قنحا الزمان (٥) من حمية الخنير (٦)
بي هوى مضمر (٧) ليت جهدي وفؤد
كلما يظهرو (٨) ففوايدي أفؤد
ذلك المنظر لا بدأوي عشمة
بأبي كيف كان فلنكي لذي راق حق استبان (٩) غذره وغذري
هل إليك سبيل أو إلى أن أباسا (١٠)
ذبت إلا قليل عبرة أو تقسا
ما عسى أن أقول ساء ظني بعسى
وانفسي كل شان وأنا اسنشري خالعا من عنان جزعي أو صبري
ما علي من يلوم لو تناهى عني
هل سوى حب رم ديهه التجني
أنا فيه أهم وهو بي يغني
قد رأيتك عيان آس عليك ساندري (١١) سيطول الزمان (١٢). وستسى ذكري (١٣)

• • •

- | | |
|--|----------------------------|
| (١) المغرب: غصن بان | (٦) الديوان: من محيا الجمر |
| (٢) المغرب: ذا فني | (٧) المغرب: بن جوي |
| (٣) المغرب: لاعبته | (٨) المغرب: كلما يذكر |
| (٤) المغرب: لي فيك | (٩) المغرب: رقي |
| (٥) المغرب: ليس محيا | (١٠) المغرب: إلى أن أباسا |
| (١١) دار: ليس عليك ساندري وفي الديوان: ليس عليك ساندري | |
| (١٢) المغرب: سايطول | |
| (١٣) المغرب: وتجرب غيري | |

« الأبيض (أبو بكر محمد) المنوف بعد سنة ٥٢٥هـ :

مَنْ سَقَى عَيْنِيكَ كَأْسَ الْمُدَامِ يَا فُئِي السُّنَّتَهُامِ

رَشَاءُ أَسْهَرَنِي وَهُوَ نَائِمٌ
رَقًّا لِي وَالْمَوْتُ بَيْنَ الْحَيَاةِ
عَجَبًا مِنْ دَمِيهِ وَهُوَ بَائِسٌ

خَنِيْتُ يَمْزُجُ لِي تَحْتَ اللَّتَامِ (١) عِبْرَةٌ بِابْتِسَامِ

فَلِيبَ دُنْيَايَ تُسْقَى رُؤْيُدُ
تَحْتَ إِحْسَانِ الْوَزِيرِ ابْنِ زَيْدِ
فَأَنَا أَرْبَعِ فِي خَبَرِ قَيْدِ (٢)

بَيْنَ يَرْ وَعَطَايَا جِسَامِ أَخْوَاتِ الْقَمَامِ

بِأَيْنِ الْقَمُورِ بِعِيدِ الْمَافَةِ
قَدْ كَفَى قَرْطَبَةَ كُلِّ آفَةِ
كَمْ يَدٍ أَوْلَيْتَ دَارَ الْخِلَافَةِ

طَوَّقْتَ جِيدَكَ طَوَّقَ الْحَمَامِ فِي حُلِيِّ الْكِرَامِ

• يرد الص في «حيس الوسيح» ص ٥٤ (عبر مقال على أي مصدر آخر)

(١) احدنا نقرأه نسحه حس حسي عبدالوهاب

(٢) كذا في المنطوق وسك في صحت العراءه ولعلها: «وانا اربع في عبر قيد»

بِكَ يَا مُشْرِفٍ صَبَّحَ السِّقْيَيْنُ
أَنْتَ صَبَّحُ السِّشْكَاءِ الْمُبِينُ
أَيُّ نَصْلٍ سَلَّمَ مَا (يَلِينُ) (٣)

مَلِكُ شَرْفِهِ فِي الْأَنْامِ حَمَلُ ذَاكَ الْحُسَّامِ

شَرُفُ الْمَلِكِ بِهِ حِينَ حَاطَهُ
فَشَدَتْ وَجَدًا بِهِ غَرْنَاظَةٌ
إِذْ تَوَخَّى بِبِوَاهِهَا ارْتِبَاظَةٌ

كَلَّ يَوْمَ اقْرَبِكَ يَا حَبِيبَ السَّلَامِ وَنَسِيتَ أَنْتَ ذِمَّامِ

• • •

(٣) بياض في الاصل، وملأناه بما يناسب المعنى

• ابن الزقاق (أبو الحسن علي) المتوفي سنة ٥٣٠:

خُذْ حَدِيثَ الشُّوقِ عَنِ نَفْسِي وَعَنِ الدَّمْعِ الَّذِي هَمَمًا

مَا تَرَى شَوْقِي قَدْ اتَّقَدَا
وَهَمِّي بِالدَّمْعِ وَاطْرَدَا
وَاعْتَدَى قَلْبِي عَلَيْكَ سَدَى

آه مِنْ مَاءِ رَوْسِ قَبَسِي بَيْنَ طَرَفِي وَالْحَشَا جُمِيعًا

بِأَبِي رَيْسَمٍ إِذَا تَقَفَرَا
أَطْلَمْتُ أَزْرَارَهُ قَمَرَا
فَاحْذَرُوهُ كَلِمًا نَظَرَا

فَبِالْحَاظِ الْجَفُونِ قَيْسِي أَنَا مِنْهَا بَعْضٌ مَنْ صَرَعَهَا

أَرْتَضِيهِ جَارَ أَوْ عَمَلًا
قَدْ خَلَعْتُ الْعَقْدُلَ وَالْعَدَلَا
إِنَّمَا شَوْقِي إِلَيْهِ قَلَا

كَمْ وَكَمْ أَشْكُو إِلَى اللَّعْسِي ظَمَأِي لَوْ أَنَّهُ نَفَعَا

• ترد الموشحة في نوشيع النوشيع منسوبة لابن الزقاق (وألحقها محقق ديوان ابن الزقاق إلى الديوان اسنادا إلى ذلك) كما نجى في «عفود اللاك» مخطوطة الاسكوريال ورقة ١٠ منسوبة كذلك لابن الزقاق بينما نسبها صاحب «فتح الطيب» ح ٥ ص ٣٦٩ إلى ابن بقي

ضَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحَوَرِ
وَبَطْرِيفٍ فَاتَرِ النَّظَرَ
حُكْمَهُ فِي أَنْفَسِ السَّبْرِ

مثلُ حكمِ الصَّيْحِ فِي الْغَلَسِ إِنْ تَجَلَّى نَوْرُهُ صَدَعَا

شَبَّهْتَهُ بِالرَّشَا الْأُثْمِ
فَلَمَعَمَرِي إِيَّاهُمْ ظَلَمُوا
فَسْتَفْنَى مِنْ بِهِ السَّقَمُ

أَيْنَ ظَبْيِي الْقَفْرِ وَالْكُئْسِ مِنْ غَزَالٍ فِي الْحَشَا رَتَعَا



• ابن رحيم (ابوبكر) المتوفى نحو ٥٣٠ هـ (؟):

نسيمُ الصِّبا أقبِلَ من نَجْدِ لَقْد زَادَنِي وَجَدًا عَلِي وَجِدِ

يَا رِيحَ الصِّبَا بِالْك دَارِي
يَقَرِّفِ شَذَا مَسْكَ دَارِي
ووصفِ رِشَا بِالْهَجْرِ يَبْرِي
وَسَلْ بِاللَّوِي عَنِ كُنُوبِ يَبْرِي

هل استوحشت بالنأي والبُعدِ وما صنعت بثينة من بعدي

لئن هجر الشاذن أوطاني
وصغب العز في النأي أوطاني
وضاقت بهجر الحب أعطاني
وضننت بما في الحب أعطاني

فيا عاذلي عن عذلي عدّ فما حب ذا الحب قد يُعدي

خمام اللوى بالتَّوْحِ أَرشَانِي
بِقُمْرِيَّة نَاحَتِ بَوْرشَانِي
تَهَيَّبُ بِهِ وَهَوَهَا شَانِي
فَقَلَّتْ لَهَا شَانِكِ مِنْ شَانِي

• الص في «جيس الوسيح» ص ١٧٥

وسعدك يا ورقاءُ من سعدي وفي كلِّ وادٍ من بني سعدي

بنفسي الذي قد بزّ أشرافا
وحازت به الأيسامُ إشرافا
أيا ابن سعيد سدت إيلافا
بذلت لهم جودك آلافا

أجريت (١) إذ سميت بالحمدِ وقت من المهدي إلى المتجدِّ

حبيبٌ بدا مذ بدا أنساني
على أنه أسكن إنساني
غزال عن التعميق أغناني
وأنصفت إذ زاد غناني

لأي قصة تبيت وحدك وأبيت وحدي كما بت عندك حتماً (٢) تبيت عندي

• • •

(١) في المطبوع : أجريت

(٢) في المطبوع : حتى

ابن بقی (أبو بكر يحيى، المتوفى سنة ٥٤٥هـ):

٩

سَاعِدُونَا مَصْبِحِينَ رَنِّشْفَهَا فَدَظْمِينَا (١) كُنْضَارِي لَجْنِي نَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَا

فَمُ بِنَا نَجْلُوا الْكَرُوسَا نَحْتَ أَظْلَالِ السُّحَابِ
نَمَاطَاهَا عَمْرُوسَا خَائِيهَا دُرُّ السُّحَابِ
فَهَوَةٌ تُعْطِي النُّفُوسَا عِمْرَ أَيَامِ السُّحَابِ

تَغْصِبُ اللَّيْثَ الْقَرِينَا وَيُرَى كَرِي قَرِينَا حِينَ يُسْقَى بِالْيَدَيْنِ جَائِعًا حِينًا قَرِينَا

بِوُثْنِنَا يَوْمَ أَنْيَقُ يَوْمَ سُتْرِبِ وَالتَّذَادِ
طَرَزَتْ فِيهِ الْبُرُوقُ لَا يَسَا أَسْوَابَ لَاذِ
وَسَقِ الْهَيْمُ الرَّقِيقُ مَاءً وَرِدٍ بِرَدَاذِ

أَطْفَهَرَ السَّحَرَ الثُّبِينَا حِينَ رَشَّ الْيَاسْمِينَا وَيَكِي مِنْ دُونَ عَيْنِ فَضَحِكُنَا فَكَيْهِينَا

أَهَا السَّافِي الْمُخَيَا بِرِيَا حِينِ السُّمْنِي
يَسْعُرُ عَيْنِيكَ الْخُمِيَا فَاصْرِفِ الصَّهْبَاءَ عَمِّي
لَا تَسَلِّظْهَا عَمَلِيَا فَالْمَوَى قَدْ نَالَ مَسِي

قَدْ نَفَثَتْ السَّخْرُفِينَا قَرَضِينَا الْحُبَّ دِينَا قَمْنَائِي دُونَ تَمِينِ أَنْ نَرَى ذَاكَ الْجَبِينَا

لِي حَبِيبُ يَوْسُفِي وَصَلُّهُ فِي الْحُبِّ مِينُ
وَجْهُهُ صَبْحٌ وَضَمِي قَدْ تَبَدَّى فِي الْأُجُنَّةِ
دَلِّي مِنْهُ الْأَيْبِي فَأَعَادَ النَّارَ جَمَّةِ

• ترد في « جيش التوشيح » ص ١٣ ولم نجدها في غيره من المصادر
(١) في المطوع: قد صمما

بَدَلْكَ الْوَرْدَ الْمُصَوَّنَا بَعْدَمَا كَانَ ضَيْئًا فَكَأَنِّي ذُو رَعِينٍ أَوْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

سَاءَ مَا لَمَّا اتَّضَلْنَا كُلُّ مَفْتَابٍ حَسُودٍ
وَكَذَلِكَ الْوَجْهَ قَلْبِنَا لَا لَتَدْنِيْسِ الْبُرُودِ
لَمْ تُرِدْ فِيهَا امْتِنَلْنَا غَيْرَ اقْتِلَاقِ الْحَسُودِ

قَدْ بَلَيْنَا وَابْتَلَيْنَا وَاشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا قُمْ بِنَا يَا نُورَ عَيْنِي نَجْعَلُ الشُّكَّ يَقِينَا

٥٢

مَالِي شَمُونَ إِلَّا شُجُونٌ مِزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعٌ هَسُونٌ
لَهُ مَا بَدَّزَ مِنْ الدُّمُوعِ
صَبٌّ قَدْ اسْتَمَبَّرَ مِنْ السُّلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جُؤْدُرُ يَوْمِ الْبَقِيْعِ (١)
فَهُوَ قَنْبِيلٌ لِابْلِ ظَمِيمٍ بَيْنَ الرَّجَا وَالْكَاسِ لَهُ مَثُونٌ
جَمْرَ حَتَّى لِلتَّحِينِ كَفِّي بِكَفِّي
وَحَبِيلَ مَا بَنِي وَبَيْنَ الْفِي
لَا شُكَّ بِالْبِينِ يَكُونُ حَتْفِي
حَانَ الرَّحِيلِ (٢) وَلِي دَيْسُونٌ إِنْ رَدَّهَا الْعَبَاسُ فَهُوَ الْأَمِينُ
أَمَا تَرَى التَّبْدَا بَدَرَ السُّفُودِ
قَدْ اكْتَسَى خُفْرًا مِنْ الْبُرُودِ
إِذَا انْتَبَى نَفْرًا مِنْ (٣) الْقُدُودِ

• النص في «دار الطراز» ص ٦٧ وذكر الخرجة ص ٣١ ونسبها لابن بقي ونورد
الموشحة في نفح الطيب ٣٠٢/٩ مسبوقة به وما يطربني من الموشحات قول بعضهم
«ونرد الخرجة في توشيح التوشيح» ص ١٧٥ في حاتمة موشحة للصفدي باها على

نقى موشحة ابن بقي

(١) نفح : يوم الطلوع

(٢) نفح : حال

(٣) دار : من

أضحتى بِقُورٍ مُتَّ بِاحْرَيْنِ قَدْ اكسى بِالْأَسِ الْبَايَمِينِ
 قَلتُ وَقَدْ شَرَّلا النِّوَمَ عَنِ
 وَأَيْأَسَ الْمُؤَلَّا الثَّقَمُ مِنِّي (٤)
 صَد. فَلَمَّ صَد فرَعَتُ سَنِي
 جَسِي نَحِيلُ لا يَسْتَبِينُ بَطْلَةُ الْجَلَّاسِ (٥) حَيْثُ الْآنِيْنُ
 تَجَاوَزَ التَّحْدَا (٦) قَلْبِي اسْتِيافَا
 وَكَلَّفَ الشُّهْدَا مَن لَوْ (٧) أَطَاقَا
 قَلتُ وَقَدْ مَدَا (٨) لَسِي رُؤَافَا:
 لَيْلٌ طَوِيلٌ وَلا مُعِينٌ يَاقَلْبُ بَعْضِ النَّاسِ أَمَا تَلِينُ؟

• • •

(٤) دار: للقم

(٥) دار: تطلبه

(٦) نفح: الحد

(٧) نفح: من لا

(٨) نفح: وقد مد

• أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠هـ):

ذَهَبَتْ شَمْسُ الْأَمِيلِ فِضَّةُ النَّهْرِ

أَيُّ نَهْرٍ كَالْمُدَامَةِ
صَيْرَ الظِّلَّ فِدَامَةَ
نَسَجَتُهُ الرِّيحُ لَامَةً
وَتَنَبَّتْ لِلْفَصْحِ لَامَةً

فَهُوَ كَالْمَعْضِ الثَّقِيلِ حُبٌّ بِالسُّمْرِ

مَضْجِكاً تُفَرِّ الْكَيْتَامِ
تُبْكِيَا جَفْنَ الْقَمَامِ
مُنْطِيقاً وَرَقَ الْحَتَامِ
دَاعِيَاً إِلَى السُّدَامِ

فَلِهَذَا بِالْقَبُولِ خُطَّ كَالنُّظَرِ

حَبَّذَا بِالْحَوْرِ مَسْنَى
هِيَ لِنَفْطٍ وَهُوَ مَعْنَى
مَذِيبُ الْأَشْجَانِ عَيْنَا
كَمْ دَرِينَا حَيْثُ يَسْرَتْنَا

ثم في وقت الأصيل لم تكن نديري

• النص في «المغرب» ١٠٣/٢

قَلْتُ وَالزُّجُ اسْتَدَارَا
يَبْدُرِي الْكُأْسِ يَسْوَارَا
سَالِبٌ مِنْهُ السُّوقَارَا
دَائِرًا مِنْ حَيْثُ دَارَا (١)

صَادَ أَطْيَارَ الْعُقُولِ . شَبِكَ الْخَمِيرِ

وَقَدَ الْجِيبُ فَأَخْلَفَ
وَأَشْتَهَى الْمُنْظِلَ فَسَوَّفَ
وَرَسُولٍ قَسَدَ تَعْمَرَقَ
مَنْنَةً مَا أَدْرَى فَحَرَّقَ :

بِاللَّهِ قُلْنَ يَا رَسُولِي . لَسْتُ يَنْفِي بَدْرِي

• • •

(١) المطبوع : دار

• ابن شرف (أبو عبدالله) المتوفى نحو سنة ٥٧٠ هـ :
يا رَبِّةَ العِقيدِ متى تَقَلَّدَ بالأُنْجُمِ الزَّهْرِ ذاك المَقَلَّدَ

من أطلَعَ البَدرا على جَبِينِكَ
وأودع السُّحرا بين جَنَفونِكَ
وزرع السُّمرا بِسَفْرَطِ لِسِينِكَ
يالكِ مِن قَدِّ مَهما تَأوَّدَ أَهَدَى الي الزَّهْرِ خَدًّا مُوَرَّدَ

قَم فاقْتَدِخَ زَنَدًا من السُّمُقارِ
قد قَلبتِ عِبْقدا مِمَّن الدَّراري (١)
وَأَلْبَسْتِ بُرْدًا مِن السُّضارِ
واشربِ على وُدِّ (٢) عُليا عَمَدِ ناهيكِ من سِرِّ وطيبِ مَوَرَّدِ

السَّنصرُ يَلْتَمِخُ على عُلاهُ
والزَّهْرُ يَرتَمِخُ إلى نَعداهُ
ما الصَّبِغُ وَضامُ لولا سَواءُ
فالبسِ من المَجدِ بُردًا مَعضدًا وانظِمْ من
السُّفْرارِ (٣) دُرًّا مُنْقَصدِ

لله ما أَعْلَى في كَـلِّ حَـالِ
مَلِكٌ قد اسْتولَى على السُّكَمَـالِ
مُقَلَّدٌ نَضلا من السُّجَـلالِ

• يرد في «حيش التوشيح» ص ١٠٥، و«المغرب» ٢٣٢/٢ (وأهمل محقق الجينس
— لأمر ما — أن يقابل بين الصبي)

(١) الجيس : الدرار

(٢) المغرب : على ورد (وذكر المحقق أنها في الأصل : على ود)

(٣) الحس : من الفجر

ابن مالك الرقسطي (أبو بكر أحمد) المتوفي سنة ٥٧١ هـ :
 ماذا حَمَلُوا فَوَادَ الشَّجِي يَوْمَ وَدَعُوا
 مالي بِالرُّبَى يَدُ تَتَطَاعُ
 وَنَارُ الْجَوَى يُذَكِّيهَا الْوَدَاعُ
 وَيِرُّ الْهَوَى بِدَمْعِي يُذَاعُ (١)
 بِالْحَبِّ تَهِيلُ (٢) عِيُونَ وَتَلْتَاعُ أَضْلَعُ
 هَلْ يُرَجِي إِيَابَ لِعَهْدِ الْحَبَائِبِ
 إِذْ غَصَنُ الشَّبَابِ (٣) مَطْلُوكُ الْجَوَانِبِ
 وَوَصَلَ الْكَيْمَاتِ مَبْذُوكُ الْمَطَالِبِ
 فَلَا تَبْخُلُ بِالْوَضْلِ وَلَا الصَّبُّ يَقْنَعُ
 لَا أَسْلُو وَلَا أَصْنِي لِلرَّوَاحِي
 بَلْ أَصْبُو أَلْ قَضِيمِ الْوَشَاحِ
 فَجِيلِ الظَّلَا (٤) مَا بَيْنَ الْأَقْجَاحِ
 فَلَوْ يَمِيدُ مَا بَسْتُ (٥) أَظْمَا وَيَنْقَعُ
 كَمَ ذَا تَهَجُّعُ وَجِيفِي سَاهِرُ
 بَدْرٌ يَطْلُعُ (٦) فِي الصُّبْحِ لِنَاظِرُ (٧)
 لَهُ يُرْقِعُ مِنْ سَوْدِ الْقَفَائِرُ (٨)
 إِذْ تُبِيلُ قَشِيشٌ بَلِيلٌ تَقْتَعُ
 قَدْ ذُو أَعْيَادَالِ مِنْهُ الْغَصْنُ اللَّدْنُ

• النص في «المغرب» ٤٤٦/٢ هـ «جيس التوشيح» ص ٢١٨

- (١) جيس : بالدمع
 (٢) جيس : فكم نمل
 (٣) جيس : اذ غص
 (٤) المغرب : يجيل
 (٥) المغرب : ملابت
 (٦) جيس : طي يطلع (٧) جيس : لافر (٨) جيس : الظفائر

يَهْرُ لِلْحَمْدِ (٤) نَضْلًا مُهْتَدٍ يَهْبُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ

انسيم من الحُستى
في الشرف الأسمى
يا صِدْقَ من غيبتى
ما كوكبُ المجدِ الا عمداً

بِكُلِّ حُسْنٍ
وظلُّ أَمْنٍ
وَأَنْتَ بِسَمْنٍ
فرايةُ الامرِ عليه تُعْتَدُ



(٤) الجينس : يَهْرُ

ممشوق اللال بنا (٩) ثم يرنو
بميتي غزال فاحذر حين يدنو
لحظ يريسل يهاما لها القلب موقع
مئى النفس كم تُرقي بالتجني
فيا بدرتكم صل بمض التني
لمن لم يئتم وبيات يفتي:
أسمر حلو بياض كل عاشق يبيت معو (١٠)

• • •

(٩) كذا في النص ، ولعلها يتأى

(١٠) في المغرب : مع

ابن زهر (الحفيد) المتوفى سنة ٥٩٥ هـ:

أيتها الساقبي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع
ونسديس همس في غرسيه
وبشرب الزجاج من راحتيه
كلما استيقظ من سُكرته
جذب الزق اليه واتكى
وسقاني أربما في أربح
مالعيني غشيت بالظنير
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمخ خبيري
غشيت عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معي
غصن بان مان من حيث استوى
بات من يهواه في فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى
ويحه يبكي لما لم يقع
ليس لي صبر ولا لي جلد
بالقومي عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجذ
مثل حالي حقا أن تشتكى
كمد اليأس ودك الظمغ
كبيدي حرى ودمعي يكث
تعرف الذنب ولا تعترف
أها الممرض عما أصف
قد نما حبي بقلبي وزكا
لا تخل في الحب أنى مدعي

• رد الموشحة في العديد من المصادر من بينها «المغرب» ٢٦٧/١ و «دار الطراز» ص ٧٣ (غير منسوبة) و «معجم الادباء» ٢١٩/١٨ و «المطرب» - غير كاملة - ص ٢٠٠ و «الموافق» ٤٠/٤ و «توسيع التوشيح» ص ١٢٦ (وقابل محقق التوشيح النص على المصادر السابقة ومن ثم لم نر ضرورة لرميد كل الخلافات) كما ترد في: «عيون الأنباء» - ص ٥٢٦ وفي «جيش» ص

حَسْبِي الْوَجْوهُ الْمِلاحا وَحَسْبِي سِوَدٌ (١) الْعُيونِ
 هَلْ فِي الْمِوى مِنْ جُنَّاجِ
 وَفِي (٢) نَسِيدِيْمٍ وَرِاجِ
 رَامِ النَّصْرُوْجِ (٣) صِلاجِي

وَكَيفَ أَرْجُوْ صِلاجِا بَيْنَ الْمِوى وَالْمُجْونِ
 يَاغْنايْبِبا لا يَنْفِيْبُ
 أَنْتِ الْبِميْدُ الْقَريبُ
 كَمْ تَشْتَكِيْكَ (٤) الْقَلْبُوبُ

أَثْخَنَتْهُنَّ جِراحِا وَاسْأَلِ سِهامَ الْجُفُونِ (٥)
 أَبْسَكِي الْعِميونَ الْبِواكِي
 تَذْكَارَ أَخْتِ السُّمّاكِ
 حَتَّى حَمَمِاْمُ الْأَراكِ

بِسْكَي يَسْتَجِوي وَنِاحِا عَلَي فِروْعِ الْفِصْونِ
 أَلْقَى إِلِهيْها زَيْمِامِها
 صَبَّبُ يَسْداوِي غِرامِها
 وَلا يَسْطِيقُ السَّمْلِامِها

٢٠٢ وديوان ابن المعتز (ط . القاهرة ١٨٧١)، بعناية عزيز زند والنسبة لابن
 المعتز غير صحيحة كما بينا ونجىء كذلك في «العداوى المائسات» ص ٥ وفي
 «عقود الآل» - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦ وسذكر الفروق بين النسخ
 عند تحقيقنا للكتاب الاخير

• ترد الموشحة في «المعرب» ٢٧٣/١ وفي «نوشيع» ص ١٠١ وفي «عيون
 الانباء» ص ٥٢٧

(١) المغرب : نجل . طقات : كحل (٢) المغرب : اوفى (٣) المغرب : النصيح
 (٤) عيون : تشتكيك (٥) المغرب : فاترك . عيون الانباء : سهام العيون

غدا بشوقٍ وراحا ما بين سببي الطنون
ياراجلا لم يودغ
رحلتك بالأنسي أجمغ
والمجزئ يعطي وينتغ
مرؤا وأخفوا الرؤاحا عني وما ودغوني (٦)

• • •

(٦) عيون : سحر وماودعتني

• محيي الدين بن عربي (المتوفي سنة ٦٣٨ هـ):

عندما لاح لعيني المتكا ذبتُ شوقاً للذي كانَ معي

أهـا البيـتُ المنـيقُ المـشرفُ
جاءك المعبـدُ الضمـيفُ المـسرفُ
عبيـتُه بـالدمعِ دوما تـذركُ

فريبةٌ منه ومكـرُ فـالبيـكا ليسَ محموداً إذا لم ينقـع

كلّما عـددتُ فـيـه قال لـي
ليس هـذا فـي بل فـي أـيس لـي
سأرى حـكمَ قـلبـي قد بُـلي

بـهـاها مـتـفـيئاً قـد سـكـا وأنا أعلـمُ شكـوى الجـزعِ

أشـرقتُ شـمـسُ لـه ما شـرقتُ
فـرأينـاهاها إذ شـرقتُ
أرعدتُ سـحـبٌ لها ما أبرقتُ

فـمـلـنـنا أنه حـينَ بـكى ما بـكـى إلا لأمرٍ مـوجعِ

مـرّ بـي فـي لـيلـة لـيسَ لها
آخـرٌ والـضُّبـحُ قـد جـلأها

• اننص في «الديوان الاكبر» ط. حجر (بومباي) ص ٢٠٢ وغنى عن الذكر
ان الموشحة على نسق قول ابن زهر «ايها الساقى اليك المشتكى»

والذي حرّمها حلّها

وانتدى يطلبُ وصلي واتكى
ومضى اذ وقضاً لم يرجع

أها الساقى اسبقني لا تأتلي
فلتقد أتعبت فيكوري غدلي
ولقد أنشدت ما قيل لي:

أها الساقى اليك المشكى
ضاعت الشكوى إذا لم تنفع

•••

• ابن سهل الإشبيلي (المتوفي نحو سنة ٦٥٠ هـ):

هل ذرى طيبي الجيمي أن قد حمى
فهو في حرّ وخفق متلما
ياسدوراً أشرق يوم النوى (١)
ما لنفس في الهوى ذنب سوى (٢)
أحسنى اللذات مكلوم الجوى
كلما أسكوه وجدي بسما (٣)
إذ يقسيم القطر فيه ما أتما
غالت لي، غالت بالتودة
ما علمنا مثل تغرنصدة
أخذت عيناه منه القربده
واجم الأمة معسوك اللمي
وجهه يتلو «الضحى» مبيماً
أها السائل عن جرمي لديه
أخذت تمش الضحى من وجنتيه
ذهب الدمع بأشواقه اليه

قلوب صب حله عن مكسي
لعبت ريح الصا بالقسي
عزراً نسلك، نهج الغرر (٤)
مكم الحسنى ومن عيني التظر (٥)
والتداني من حبيبي بالفكر
كالربي بالعارض المنجس (٦)
وهي من بهجتها في غرس (٨)
بأبي أفديه من جاف رقيق
أفحواناً عصرت منه زجيق (٩)
وفوادي سكره ما إن يفوق (١٠)
ساجر الغنج نهبي اللبس (١١)
وهو من إعراضه في «عبيس»
لي حزاء الذتب وهو المذنب
مشرقاً للشمس فيه مغرب
وله حد بلحظي مُذهت

• النص في ديوانه (ط. احسان عباس) ص ٢٨٣، وفي «نفع الطيب»
٢٧١/٩، وعقود اللاك - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦٧، وهناك بعض
اختلاف في ترتيب الأفعال والأبيات.

- (١) نفع والديوان : اطلمت
- (٢) الديوان : تسلك بي. عقود : غرر نسلك
- (٣) الديوان : ما لنفس وحدها
- (٤) عقود : الحسن
- (٥) الديوان : التذاذي
- (٦) الديوان : واذا اشكو بوحدتي. عقود: كلما اشكو بوجد ناسا
- (٧) الديوان : والعارض
- (٨) عقود : فهي (٩) عقود : أفحوان (١٠) عقود : لا يطيق
- (١١) عقود : الحمة اكحل الطرف (وينقض بعدها القفل والبيت التاليان)

لاحظته مقلتي في الخلس
ذلك الوردة على المُفترس
غادرني مقلته ذيقاً (١٢)
أثر النمل على ضم الصفا (١٣)
لست ألهاه على ما ألقا
وعدولي نطقه كالخرس
حل من نفسي محل النفس
تنلظي كل حين مانثا (١٦)
وهي ضر وحريق في الحشا (١٧)
أسدا وزدا وأهواه رثما (١٨)
وهو من الحاظه في خرس :
اجعل الوصل مكان الخمس

بنيت الوردة بسفرس كلما
لست شعري أي شيء حرقا
كلما أشكو إليه حرقتي
نركت الحاظه من زمقي
وأنا أشكره فيما بقي (١٤)
فهو عندي عناد إن ظلما
ليس لي في الأمر حكم بعد ما (١٥)
أضرم الدمع بأحشائي ضرام
هت في خدي به برد وسلام
أتقي منه على حكم الغرام
قلت - لما أن تبدي مُفلقما
أها الآخذ قلبي مفنا



(١٢) الديوان : من اذا امل عليه حرقى طارحتى مقلته الدنفا

(١٣) الديوان : تركت اجفانه (١٤) الديوان : وانا اشكره

(١٥) عقود : ليس لي في الحب

(١٦) الديوان : تقدت دمي نار في ضرام تلتظي... مايشا . عقود : منه للنار.

(١٧) عقود : وهي منار (١٨) عقود : اسد الغاب

• ابن خاتمة الانصاري (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ)

فَمَ هَاتِيهَا قَهْوَةٌ كَدَمِيحٍ مَهْخُورٍ قَدِ افْرَطْتُ افْرَاطَ فِي اللِّطْفِ وَالنُّورِ
هَذَا الرَّبِّي تَحْتَانَ فِي حُلَلِ الزَّهْرِ
قَدِ سَحَبْتُ اذْبَانَ بِرُودِهَا الخُضْرِ
وَرَقَّتِ الآصْنَانُ لَعَبْرَةَ القِطْرِ
فَافْتَرَّ عَنِ حُوتِهِ (١) ثَغْفَرُ الأَزَاهِرِ وَنَمَّ عَنِ أَحْلَاطِ مَسْكِ وَكَافُورِ
فَهَاتِيهَا قَدِ بَانَ لِعَاذِلِي عُذْرِي
فِي نَغْمَةِ العِيدَانِ وَرَنَّةِ الزَّمْرِ
وَالثِّمِ طَلِي القُّطْعَانِ (٢) وَأَرْشَفَ لَمِي الخَمْرِ
رُضَابَةٌ حَلْوَةٌ كَذُوبٌ بَلُورِ تَحْتَانَ فِي أَسْمَاطِ مِسْ جَوْهَرِ النُّورِ
يُديِرُهَا تَبِيَّاهُ كِبَالِ الصُّجْحِ مِرَاةً
إِنْ أَخْطَأْتُ كَفَّاهُ سَقَنَكَ عَيْتَاهُ
لِلَّهِ مَا أَيْبَاهُ وَمَا اتَّخَيْلَاهُ
غَصْنٌ عَلَى رَبْوَةٍ الحَاظُ يُغْفُورُ (٣) مَجْوَهَرُ الأَفْرَاطِ طَلِقُ الأَسَارِيرِ
أَهْ وَمَنْ يُبْلِي حَرَبَانَ يَدِي
لَشَدَّ مَا حَلَا بِالصَّبِّ مِنْ وَخْدِ
يَاعَاذِلِي مَهْلًا فَالْعَدْلُ لَا يُجْدِي
مَا أَبْعَدَ السَّلْوَةَ عَنِ قَلْبِ مَذْعُورِ نُيِّمَ فِي فُطَاطِ بَسْدِرِ دَبْحُورِ
رَفَقَا مُنَى قَلْبِي بِقَلْبِ هَيْمَانِكَ
قَدِ زَادَ فِي كَرْبِي فَتَوَرَّ أَجْفَانِكَ
اللِّسَّةَ فِي صَبِّ بِنَيْلِ إِحْسَانِكَ
بِاصْحَابِ السَّظْوَةِ وَارْفَقْ بِمَهْجُورِ أَضْغَطْنِي إِضْغَاطِ (٤) بِافْتِنَةِ الحُورِ

- من ديوان ابن خاتمة الأنصاري تحقيق د. محمد رضوان الدابة (١٩٧٢م) ص ١٦٢، وعلق المحقق على النص بقوله إن: الموشح تام من ستة أفعال وخمسة اغصان وهو موشح غير شعري والخرجة عامية ولا تنفق معه في تعبير «اغصان» ولا في قوله: ان الخرجة بالعامية فهي خرجة فصيحة ونوتر تسمية «الآبيات» بدلا من الأغصان لأنها هي التي عليها ابن سناء الملك.
- (١) الحوة: السمرة في الشفة (٢) لعل المراد هنا: صغار الطباء (٣) اليعفور: ولد الطيبي (٤) لاشك في أن التعبير سيء ولعل لقافية الطاء اثرا في هذه الركائفة

• لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) :

جاذك العيبُ إذا الفيتُ هي
لم يكن وصلك الا حُلماً
إد يقدو الذهرُ أَسْتَابَ المُنَى
رُمِرا بن فرادى، وثُنَا
والحبا قد جَلَلِ الروضِ سَنَا
وروى النعمانُ عن ماءِ السَّما
فكسَاهُ الحسنُ ثوباً مُغَلَّماً
في ليالٍ كتمتُ سرَّ الهوى
فمال نحسُّ الكأسِ فيها وهوى
وطر ما فيه من عيبِ يسوى
حين لَدَّ الأُنسُ شيناً أو كما
غارت الشهتُ بنسنا أورثاً
أُي شىءٍ لا مرىءٍ قد خلصا
تَنهَبُ الأزهارُ منه الفُرصا (٣)
فإذا الماءُ تُناجى والخصا
تبصُرُ الوردةُ غيبورا بَرما
وترى الآسُ لسبباً قَها
يا أهيلَ الحى من وادي القضا
ضاق عن وجدى بكم رحبُ القضا
وأعبدوا عهداً أنسٍ قد مضى

يارمانَ الوصلِ بالأندلسِ
في الكرى أو خُلَّتة الخليلِ
ينقلُ الخَطو على ما يرسمُ
مثل ما يدعو الوفودَ الموسمُ
فنغورُ الزهرِ منه بيسمُ (١)
كيف يروى مالِكُ عن أنسٍ
بزدهي منه بأزهي ملَسِ (٢)
بالدجى لولا شموِسُ الغررِ
مستقيمَ السيرِ سعد الأثرِ
أنه مرَّ كليمُج البَصيرِ
هجمَ الصبحُ هجومَ الخرسِ
أثرت فيسا عيونُ التَّرجسِ
فنيكون الروضُ قد مكنَ فيه
أمنتُ من مكره ما تنقَّيه
وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
يكتسى من غيظه ما ينكتسى
يسرقُ السمعُ بأذنى قَرَسِ (٤)
ويقلبي سكنُ أنتم به (٥)
لا أبالي شرقه من غربه
تعنقوا عابكم من كربه

• يرد النص كاملاً في «النفع الطيب» ٢٢٥/٩ (ويأتي معظمه في «مقدمة» ابن خلدون ٣/٣٩٩) وفي مصادر أخرى منها «عقود اللاك» - مخطوطة الاسكوريال -

(١) عقود : ومقدمه : فسنا الازهار فيه

(٢) عقود ومقدمة : بأبهي

(٣) عقود ومقدمة : فيه الفرصا

(٤) «مقدمة» : بأذنى فرس

(٥) مقدمة : مسكن

وانفقوا الله وأحيوا مُفَرَّمًا
تَحَبَّرَ القَلْبَتِ عَلَيكُم كَرَمًا
ويقلبي مَكْمُ مَقَرَّتْ
قَرُّ أَطْلَعِ مَسَّه المَغْرِيْتُ
قد تَسَاوَى مَحْيِرٌ أَوْ مَذْنِبٌ (٧)
ساحر المقلية معسوك اللّمي
سَدَّدَ السَّهْمَ وَسَمِي وَرَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابِ الأَمَلُ
فهو للنفسي حَسِيْبٌ أَوْلُ
أمره مَعَمَلٌ مَمَسْتَلٌ
حَكْمِ اللِّحْظِ هَا فَا حَسَكَمَا
مَنْصِيفُ المَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَا
مَا لِقَلْبِي كَلَّمًا هَبَّتْ صَا
كَانَ فِي اللُّوْحِ لَهُ مَكْتَسَبًا
جَلَّتْ أَلَمٌ لَهُ وَالمَوْصَبَا
لَا عِجْ فِي أَضْلَعِي قَدِ أَضْرَمَا (٩)
لَمْ يَدْعُ فِي مُهَجِّي إِيذِنَا
سَلَمِي يَانْفُسُ فِي حَكِيمِ القَضَا
دَعَاكَ مِنْ ذَكَرِي زَمَانِ قَدِ مَضَى (١١)
وَاصْرِفِي القَوْلَ إِلَى المَوْلَى الرِّضَا
الكَرِيمُ المُنْتَهَى وَالمُسْتَمَى
يَنْزِلُ النُّصْرَ عَلَيهِ مِثْلُ مَا
مِصْطَفَى اللّهِ سَمِي المِصْطَفَى

(٦) عقود : خراب

(٧) مقدمة : ومذنب

(٨) عقود : وفؤادي

(٩) مقدمة : لاعيج من

(١٠) مقدمة : الا الدما، عقود : الا دما كبقايا

(١١) عقود : من ذكر

(١٢) ينتهي ها النص في المقدمة

مَنْ إِذَا مَا عَمَّقَ الْعَمَدَ وَفِي وَادَا مَا قُشِحَ الْخَطْبُ عَمَّقَدُ (١٣)
 مِنْ بَيْبِ فَيْبِ بْنِ سَعِيدٍ وَكَفَى حَيْبُ بَيْبِ الصَّرْمَحِيِّ الْعَمَدُ
 حَيْبُ بَيْبِ الصَّرْمَحِيِّ الْجَمِي وَحَنَى الْفَضْلُ رَكْبِي الْمَغْرَبِي
 وَالْهَوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَمًّا وَالسَّيْ هَبَّ إِلَى الْمُغْتَرِبِ (١٤)
 هَاكُنَّهَا يَأْسِبُظْ أَنْصَارِ الْعُلَا وَالَّذِي إِنْ عَمَّرَ الدَّهْرَ أَقَالَ
 غَادَةُ أَلْبَسَهَا الْحَسَنُ مُلَا (١٥) تَهَرُّ الْعَيْنُ جَلَاءً وَصِقَالَ
 عَارِضَتْ لِمَطَأٍ وَمَعْنَى وَحَلَا قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحَبُّ فَقَالَ:
 هَلْ دَرَى طَبِي الْجَمِي أَنْ قَدْ حَمَى فَلَسَبَّ صَبَّ حَلَّةً عَنْ مَكْنَسِ
 فَهَوْ فِي حَرٍّ وَخَفِيفٍ مِثْلَ مَا لَعِبَّتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

• • •

٠٢

بِاحَادِي الْجَمَالِ عَرَّجَ عَلِي سَلَا (١) قَدْ هَامَ بِالْجَمَالِ فَلَيْبِي وَمَا سَلَا
 عَرَّجَ عَلِي الخَلِيجِ وَالرَّمْلِ فِي الْحَمَى
 فِي الْمَنْظَرِ الْبَيْجِ بِالْبَيْضِ كَالدَّمَى
 وَالْأَبْطَحِ النَّسِيجِ مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا

(١٣) عقود : فتح

(١٤) عقود : نهب

(١٥) عقود : حلا

* النص في «نفاضة الجراب في علالة الإغتراب» لابن الخطيب، تحقيق
 د. أحمد مختار العبادي، ص ١٦٩. ويضم الكتاب موشحة أخرى لابن
 الخطيب، مطلعها:

قَدْ قَامَتِ الْحِجَّةُ فَلْيَعِذِرِ الْعَاذِرَ فَالْعَذَلُ لَا يَجِدِي
 شَيْئاً سِوَى الْكُرْبِ وَشَقْوَةَ الْخَنَاطِرِ وَشِدَّةَ الْوَجْدِ
 (ص ١٦٧) وَصَدْرُهُمَا ابْنُ الْخَطِيبِ بِقَوْلِهِ:

«ونظمت في هذه الأيام (ورجح المحقق في المقدمة، ص ٤ أن
 الكتاب لم يؤلف في الفترة ما بين سنة ٧٧٣ - ٧٧٦ أي الفترة الأخيرة من
 حياة ابن الخطيب التي قضاها في مفاه الاختياري بالمغرب الأقصى بل أكد =

لَأَنَّهُ مِنِّي جَلَالِي تَخْتَنَاكَ فِي حُضْرَا
وَوَطَّفَ مِنِّي الرَّبَاظُ
بِرُكْبِي طَائِفِ
دَارِ الْخِلَافِ
مَسْقَدَسِ الْمَوَاطِ
كَمْ مِنْ بَيْنَا هِلَالِي بِأَفْقِهِ أَنْجَلِي
أَحْيَى عَلَى الضَّلَالِي فَانْجَابَ وَانْجَلَى
وَالْبَحْرُ وَالغَدِيرُ
فِي أَفْقِهِ تَسِيرُ
وَقَهْوَةُ الدَّانِ
أَغْرُ كَالغَزَالِ مَقْلَدُ الْكَلَالِ
يَسْطُورَا بِأَلْيِ بِالْأَسْدِ فِي الْفَلَا

أَوْلَى إِلَيْكَ أَوْلَا
أَكْثَرَتْ فِيهِ قَوْلَا
مَنْ ذَكَرَ مَعَهْدِ
فِي كُلِّ مَشْهَدِ
خَذَفِي امْتِدَاحِ مَوْلَى
نَسَبِ مَوْجِدِ
مُتَعَجِدِ الْجَلَالِ مُشْهَرِ الْعُلَا
قَدْ فَاقَ فِي كِمَالِ وَرَاقِ مُسْجَدِ الْفَلَا

مُؤَافِقِ الْخَلِيلِ
ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ
فِي الْإِسْمِ وَالسَّمَاتِ
الرَّائِقِ الصِّفَاتِ
مُكْرَمِ الدَّخِيلِ
وَمُجْزِلِ الْمَسَاتِ
وَمُحِيبِ النَّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا
وَرَافِعِ الْمَعَالِي سُخْبَا مُظَلَّلَا

بِأَقْنِ غَلَاهِ دَرْتِ
خُذَهَا إِلَيْكَ جَرْتِ
كُلِّ نَائِلِ
دَيْلِ الْخَمَائِلِ
وَفِي حُلَاكِ أَرْزْتِ
بِقَوْلِ فَائِلِ
بِأَمْنَزَلَةِ الْغَزَالِ حَيْبَتِ مَنْرِلَا
فَمَا أَرَى بِسَالِي عَنْهُ وَإِنْ سَلَا

« أن الكتاب ألف خلال المدة التي كان فيها ابن الخطيب برفقة السلطان محمد الخامس الغني بالله عندما خلع وأقام بالعدوة. أي من سنة ٧٦٠ الى سنة ٧٦٣) موشحتين استطردت فيما الى مدح السلطان، تنويماً في الوسائل، وسيراً للقرعة».

(١) مدينة بالمغرب الأقصى على المحيط، وأقام بها ابن الخطيب فترة في خلال مدة عزل السلطان، الغني بالله.

• ابن رمرق (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ) :

نَيْبُمُ غَرْنَاطِيَّةٍ عَلِيْلُ
وَرَوْضُهَا زَهْرٌ بِسَلِيْلُ
سَقَى بِنَجْدِ رَبِّهَا الْمُصَلَّى
فَجَمَعْنَاهُ كَلِمًا اسْتَهْلًا
وَالرَّوْضُ بِالْحُخْنِ قَدْ تَجَلَّى
وَدَوْخُهَا ظَلْمُهُ ظَلِيْلُ
وَالْبَرْقُ وَالْخَوْ مُسْتَطِيْلُ
عَقِيْلَةٌ نَاحِيهَا السَّبِيكَةُ
كَأَنَّهَا فَوْقَهُ مَلِيكَةُ
نَطْبَعُ مِنْ عَسَجِدِ سَبِيكَةٍ
أَبْدَعَهَا الْخَالِقُ الْجَلِيْلُ
قَلْبِي إِلَى حَسْنِهِ يَمِيْلُ
وَزَادَ لِلْحَسَنِ فِيكَ حَسْنَا
جَدَّدَ لِلْفَخْرِ فِيكَ مَعْنَى
تُدْعَى رِشَادًا وَفِيكَ مَعْنَى
فَالنَّصْرُ وَالسَّمْعُ لَا يَنْزَوُ

• النص في «نفح الطيب ١٠٤/١٠ يتصدرها:» وقال أيضا من الموشحات
الرائقة، في مثل هذه السابقة (إشارة لموشحة: «بالله يا قامة القضيب» في
التشوق الى غرناطة ومدح الغنى بالله) وأشار الى محاسن، من وصف الرشاد.
ويرد النص في «الغذاري المائسات» ص ٣٤ يتصدرها: «وقال متشوقا الى

غرناطة ومادحا السلطان ايده الله نصره»

(١) في النفح: «فحفته كلما استهلا» في الغذاري ينسم

(٢) في النفح: كلما تطيف

(٣) في النفح: وقلبنا

(٤) في النفح: فيك منى

(٥) في الغذاري تدعى دنارا

سعدٌ وأنصاره قبيلُ
أبدي به حُكْمَه القديرِ
ودرعَ النهرَ بالنفديرِ
فيمَن هديلٍ ومنَ هديرِ
هبتَ على روضها القبولُ
فلم يزلَ بيئها يحولُ
للزهرِ في عطفِها رقومُ
وللسدى بينها رسومُ
وكلُّ وادٍ بها يهيم
سُنبلُها مُد منه نيلُ
وعينُ وادٍ له تسيلُ
كسَم من ظلالٍ به تريفُ
ومنَ زجاجٍ به يصفُ
ومنَ شموسٍ به تحفُ
مزاجها العذبُ لسبيلُ
وكيفَ والشيبُ لي عذولُ
ياسرحةً في الحمى ظليلةُ
روضك اللهُ من خيلةُ
وبرقها صادقُ التخييلةُ
أنجزَ لي وعدك القبولُ
ياسرحه بامطلولُ

آباؤه عنسرةُ الرسولون
وتسوحُ الروضَ بالقسات
وريسَ الزهرَ بالخباب (٦)
ما أولعَ الحُسنَ بالثباب
وطرفُها بالثرى كليل (٧)
حتى تبدتَ له حُجُون
تلوحُ للعين كالنجوم
عقدُ الندى فوقها نظيم (٨)
ولم يزلَ حولها يحوم
والسِينُ الف لمسيل (٩)
من فوق حدِّ له أسيل (١٠)
تطفو له فوقها سُورُ
ما بين نورٍ وبين نُور
تديرُها بينها البُدوز (١١)
باهلٍ إلى رشفها تبيلُ
وصبغهُ صفره الأصيلُ
كنم نلت في ظلك المُنَى
بُجنى بها أطيبُ التجنى
ما زال بالفيت محيناً
فلم أقلَ مثلَ مَنْ يقولُ:
شرحُ الذي بيننا يظنونُ

(٦) في الفح: ودرع الزهر... وزين النهر

(٧) في النفع: كتب على روضها

(٨) نفع: فوقه

(٩) في النفع: شيلها

(١٠) نفع: بها نيل

(١١) في الفح: به تصف

• اللخمي الفزناطي (أحمد بن علي)، من شعراء القرن التاسع الهجري:

حيّاك بالأفراج داعي الصّباح قم لاصطباح

فالنوم في شرع الهوى لا يُباح

والصبحُ قد جرّده منه حُسام باد القسام
تضحى وجوه الزهر منه وتسام ذات ابتسام
وحامُ جنج الليل قد عاَدَ سام مما يُسام
وخافقُ البرق بدا بالنياح سامي اللياح

وأدْمَعُ المُزِنِ بِهِ فِي انْسِيَاخِ

والروضُ من ذاك المhton البليل ظلّ ظليل
يغدو نيم الزهر منه عليل يشفي القليل
وساجعُ البلبل يُبدي أليل على الخليل
لما رأى تلك الغياض الفياخ غنى وصاخ

وكاد يزري بالطيور الفياخ

إنني بذكري للتاصبي أطيّب عن كلّ طيب
كأنما تذكّره لي مطيب غصّ رطيب
حتى إذا ما قتُ فيه خطيب بما يطيّب
أنت مدحي للصفات الميلاخ عيب الصلاخ

• ترد في «العذارى المائسات» ص ١٨ تسبقها جملة «قال .. على أثر ففوله
من المح عام ٨٤٩»

فلم اصيخ فيه إلى قول لائح

أما نرى ابن البازي استمك قلبي فستان
غيثٌ ولكن ليس فيه انهمك إلا يسمك
بدرٌ ولكن ليس إلا الكمات ثم السجمان
به بأفئق المعلوات اتماخ إلى الطماخ

وشائنه البذك وفرط السماخ

قد حاز فضل (١) التيق بين الوجود جلماً ووجود
تَهَيَّوِي اليها كان اليه مجود مهها بمجود
وذائنه السمليناه رومس مجود عالي الشجود
شذاه للمأمول (٢) والئوال راخ والاقنـسـراخ

ومسورد السمايين منه فـسـراخ

يمثل هذا المذخير يُشقى الغرام مما يُسرام

(١) في المطبوع: خصل

(٢) في المطبوع: بالمأمول

وقد جاء في «نفع الطيب» ح ٩ ص ٢٩٣ مطلع موشحة للسان الدين بن الخطيب

قد حرك الجملجل بازي الصباح والسفـجـسـر لاح
فيا غراب الليل حث الجناح

وذكر أنه «معارض للموشح الشهير الذي اوله:

بنفسج الليل تذكى وفاح بين السبـطـطـاح
كأنه يبقى بمك وواح»

ومن المعارضات الاخرى له قول ابن سهل الاشيلي «ناكر الى اللذة والأصطباح»
وموشحة لاس نباته المصري اولها «ماسح محمد دموعي وساح» وتردان في «عقود
اللال» - مخطوطة الاسكوريان - ورقة ٥، ونحى. لاحيرة في «نفع الطيب».

فإيه فحزُ الفصاة الكرام سلا اصصرام
وجاهله أزرى بكل احترام صنفت المرام
وجوده في الناس حاوي الجناح بالامتياح
فهل على مدآجه من جناح

وهاكها مولاي ذات اعتمك كما يُفكك
ترجو لدئ يفصي جعل العفك للإسفان
وها أنا عارضتُ فيما متك من كان قال:
سفيج الليل تزكى وواح فوق البساط
أظنه يُفسي بباء وراخ



• المنصور السعدي (المتوفي سنة ١٠١٢هـ):

عظير الأرجاء لما سفتنا
وأنت شمس الصنحى تضيئ ما
طاق بالكأس من التريك فتى
فتس الألباب لما التمتنا
وأناسا بالخمبياً فتى
وكزوش الزجاج بين السندنا
خسرة صمراء في السلورما
بادر اللذات واجتمع شملها
ذي عيون باعسات كم لها
وافسر الأرداف عانى حملها
كلما أفرغ كأساً قال ما
فابذل الجهد وكن مغنيتنا
فرض اللذات كن منتهيها
وليبالي الألبى كن منتجها
واجتني زهر الهوى محتررا
لا تكن يوماً جباناً حينها
ما مضى يومٍ وواهى مثلها
للرياض اذهب تروى بليلها
وتحدو الروض فد كليلها

شأن الصهباء عند القلبي
يفراً الليل لنا من عتبي
مولع بالصمد عني ما فتني
واجتني منه بعض الشفة
صده تيه الهوى عن أفتي
أزجت بالمعرف أفق الجليبي
أشته الزجاج بروض الشرجي
بمبيداه وغلام مطرب
من فنون البحر ما يلعب بي
ساجل الحصر وذا من عجب
أنك بالشاري حياة الأنقي
لعميت العيت طيب الأنقي
بشفاها قس حدف الخبر
قبل أن تمهي كلمج البصر
من جنابات هموم الكسر
لاحت اللذات كالمختليبي
كان فالدهر لنا بالحرثي
بنفسى بين رهز يتجليبي
دمع طل لأشفاق البلل

• يرد النص في «الدراري السبع: الموشحات الأندلسية» ص ١٥، وعلى رأسه: «لابي العباس المحصور سلطان الأندلس»، كما يرد في «الكواكب السبعة السيارة» - مخطوطة الطاهرية - النص السابع، بتصديقه «أبي العباس المحصور مولاي أحمد، سلطان الأندلس».

والموشحة - كما هو واضح - مما نصح على موال موشحتي ابن سهل واس الخطيب اللتين مرتتا من قبل، وموشحة المنصور السعدي نموذج لموشحات متأخري المغاربة، وقد سفاها - على غلاتها - لتوضيح صيغ هؤلاء المتأخرين في حرصهم - وهي عدم حرصهم - على تحذرة صيغ القدماء.

يابغُ الغصنِ مقامَ الأتلي
 وعليها من ثيابِ الشُّنُطِ
 زر بالفنضةِ ثوبَ الأطلَسِ
 مائسات في قاءٍ أحفَرِ
 تتللاً كعمقودِ الجواهرِ
 فغدا كالصبحِ باهي المتظَرِ
 في شفاهِ البعيدِ حسن اللقي
 فبدا للسميعِ لا للملتَمِ
 وعميؤُ الشَّيبِ في سهوِ الوَسحِ
 لصروفِ حَدِّ حَدِيثِهَا وَسَنِ
 واقتفى شرخَ شبابِ وطعنِ
 واعتراه لاعج من هجبي
 واغتنامُ الوقتِ فعلُ الأكسي
 أنت اذ ذاك جبان غافلُ
 واجتهدْ فالدهرُ ضريحُ حافلِ
 والجرىءُ الشهمُ ليثُ بايبلِ
 باردا للأسدِ المُفتَرِيسِ
 وله عزمُ أضراسِ كالتقبسِ

وقُدودُ السانِ قد قامَ لها
 والرُبي ماحت تحاكي حُرماً
 جيبُها زَرَّرَ بالزهرِ كما
 وجلا الروضُ لنا أشجاره
 وتسرى في جيبِها أنواره
 خلج الليلُ به أظماره
 وبسقاياه زهت فيه كما
 كجذارٍ في مُحَتِنَا علما
 حبذا المعبوءُ أيامَ القبا
 فاذا أيقظها دهرُ صبا
 جرد الشيبُ بياضاً أشيأ
 وغدا الإنسانُ شيناً هريماً
 فاذا ما فات يقضي ندماً
 لا تدعُ عمركَ يَمُفِي هذرا
 وارقاً بالجهلِ من التَّبلِ ذرى
 إنما الأيامُ أمثالك القُرى
 ووحوشُ الأتسِ تبقى منها
 ترك السوهمَ وخاض الطُّلُما

أهم المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

ابن اياس: الدر المكنون في السبع فنون. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
ابن تغرى بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

ابن سناء الملك: فصوص الفصول وعمود العقول. مخطوطات دار الكتب بالقاهرة وخزانة الأزهر والمكتبة الوطنية بباريس.
ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
الدرويش: العقيدة الدرويشية في السبع فنون الادبية. مخطوطة المكتبة المركزية بجامعة الملك عبدالعزیز - مكة المكرمة.

السلفي: معجم السفر نسخة حققها شير محمد زمان (لم تنشر بعد)
الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٠ مجلداً، مصوره عن مخطوطات الزيتونة واستامبول والمتحف البريطاني.

النواجي: عقود اللآل في الموشحات والأزجال. مخطوطة الاسكوريال
مجهول: الكواكب السبع السيارة. مصورة عن مخطوطة الخزانة الظاهرية بدمشق.

ثانياً: مصادر:

الابشهي: المستطرف في كل فن مستظرف. جزءان. القاهرة ١٩٥٢.
ابن الأبار: الحلة السيرة. تحقيق د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣.
ابن الأبار: التكملة لصلة الصلة. جزءان. القاهرة ١٩٥٥
ابن الأحرار: (اسماعيل بن يوسف): شير الجمال: (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن). تحقيق. محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٧٦
ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الاطباء. تحقيق د. نزار رصاء، بيروت، ١٩٦٥
ابن الخطيب: (لسان الدين): حيتس التوشيح. تحقيق هلال ناجي، تونس ١٩٦٧

- ابن الخطيب: الكتيبة الكاملة في من لقياه بالأندلس من شعراء المائة
الثامنة. تحقيق د. احسان عانس، بيروت ١٩٦٣
- ابن الخطيب: الاحاطة في أحبار غرباطة. تحقيق محمد عبدالله عان.
القاهرة ٧٣ - ١٩٧٤
- ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق د. أحمد مختار
العبادي القاهرة لا تاريخ.
- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. صدره بإشراف لجنة من
المعلماء القسم الأول في مجلدين، ثم المجلد الأول من القسم الرابع القاهرة
١٩٣٩ - ١٩٤٥.
- القسم المجلد الاول من القسم الثاني تحقيق د. أحمد لطفي عبدالبديع القاهرة
١٩٧٥.
- ابن بشكوال: الصلة. جزآن، القاهرة ١٩٦٦
- ابن خاتمة: ديوان تحقيق د. محمد رضوان الداية. دمشق ١٩٧٢م
- ابن خاتمان : قلائد العتيان في محاسن الأعيان. تونس ١٩٦٦
- ابن خنيس: المقدمة ط. كاتر مير ٣ أجزاء باريس ١٨٥٨
- ابن خواتكان: وفيات الأعيان ٦ أجزاء، ط. محيي الدين عبدالحميد القاهرة
١٩٤٨
- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الاياري وحامد
عبدالحميد وأحمد بدوي. القاهرة ١٩٥٤
- ابن الزقاق: ديوان. تحقيق عفيفة دبراني بيروت ١٩٦٥
- ابن زيدون: ديوان تحقيق علي عبدالعظيم. القاهرة ١٩٥٧
- ابن سعيد (المغربي) المغرب في حل المغرب (قسم الأندلس) جزآن تحقيق
د. شوقي ضيف. القاهرة ١٩٦٤
- ابن سعيد (المغربي) رليات المبرزين وغابات الميزين. تحقيق د. النعمان
عبدالمتعال القاضي القاهرة ١٩٧٣
- ابن سعيد (المغربي): المقطف من أواخر الطريف. قسم منه نشره د.
عبدالعزير الأهاسي ضمن «أعمال مهرجان ابن

خلدون» القاهرة ١٩٦٢

ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات. تحقيق. جودت الركابي، دمشق ١٩٤٩.

ابن سهل (الاشيلي): ديوان. تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٧
ابن شاکر (الكتسي): فوات الوفيات ط. محيي الدين عبدالحميد، جزءان
القاهرة ١٩٥١

ابن عماد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين — أحمد الزين — ابراهيم
الابيارى ط ٣ القاهرة.

ابن عربي: ديوان. طبعة خجر. بومباي.

ابن قتيبة: الشعر والشعراء. تحقيق د. خويه. ليدد ١٩٠٢
ابن المعتز: ديوان. ط. صادر بيروت ٦١، وطبعة دمشق ١٣٧١، والقاهرة
١٨٩١

ابن المعتز: شعر عبدالله بن المعتز، صفة أبي بكر الصولي. تحقيق استامبول
١٩٥٠

الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني ط. دار الكتب.

الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق عمر
الدسوقي وعلي عبدالمعظم (قسم المغرب والأندلس)
القاهرة.

امرؤ القيس: ديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة
الباقلائي: اعجاز القرآن. تحقيق أحمد السيد صقر ط ٣ القاهرة ١٩٧٣
التبريزي: الوافي في العروض والقوافي. تحقيق د. فخر الدين قباوة وعمر
يحيى. بيروت ١٩٧٥

التطيلي: (الأعمى) ديوان تحقيق د. احسان عباس. بيروت ١٩٦٣
الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٤ أجزاء. القاهرة ١٩٤٧
الحلى (صهي الدين): العاقل الخالي والمرخص الغالي. تحقيق هونرباخ
ويبادد ١٩٥٥

السلي: أحبار وبراخه أدلية، مستخرجة من معجم السفر اختارها د.

احسان عباس بيروت ١٩٦٣

الصفدي: الوافي بالوفيات. الأجزاء المطبوعة (من ١ - ٩)

الصفدي: توشيح التوشيح تحقيق. البير مطلق. بيروت ١٩٦٣

الضبي: بغية الملتبس ط. مجربط ١٨٨٤م

الغبريني: عنوان الدراية. تحقيق عادل نوبهض. بيروت ١٩٦٩

القفطي: المحدثون من الشعراء. تحقيق محمد معاصري. الرياض ١٩٧٠

المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. القاهرة ١٣٨٥هـ

المعري: رسالة الغفران تحقيق د. نت الشاطيء طه القاهرة ١٩٦٩

المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ٣ أجزاء بتحقيق السقا

والايارى وشليبي. القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢

المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. طعة محيي الدين (١٠)

أجزاء) وطعة احسان عباس (٨ أجزاء).

ياقوت (الحموي): ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) نشر

دار المأمون بالقاهرة.

مجهول: العذارى المائسات في الأرحال والموشحات. اختيار فيليب قعدان

الحازن. حوية ١٩٠٢

ثالثا: مراجع عربية:

الأهواني: (د. عبدالعزيز الزجل في الأندلس. القاهرة ١٩٥٧

أنيس: (د. ابراهيم) موسيقى الشعر الطعة الثانية. القاهرة

البستاني (بطرس): أدباء العرب في الأندلس وعصر الابتعاث ط١ بيروت

١٩٦٨

الجراري (د. عباس): القصيدة (الزجل في المغرب) الرباط ١٩٧٠

الركابي (د. حودت) في الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٦٠

الريسوني (محمد المنتصر): الشعر السوي في الأندلس. بيروت ١٩٧٨

الرزقي (الصادق): الأغاني التونسية تونس ١٩٦٧

الزركلي: (حبر الدس) الأعلام ط٣

الشكعة: (د. مصطفى) "الأدب الأندلسي: موهباته وموهبه. بيروت ١٩٧٤

- صيف (د. شوقي): العصر العباسي الأول ط ٣. القاهرة الفن ومداهبه في الشعر العربي ط ٤ القاهرة ١٩٦٠
- الطنحني (محمد تاويب): ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي. بيروت ١٩٦٠
- الطيب (د. محمد عبدالله): المرشد الى فهم أشعار العرب وصاعتها ج ١ القاهرة ١٩٥٥
- عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) بيروت ١٩٦٠
- عباس (د. احسان): تازيح الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٦٢
- عناني (د. محمد زكريا): نشأة فن التوشيح بالشرق: مستلة من مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية (مكة المكرمة) العدد الثاني
- غومس (اميليو غرسية): الشعر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس، ط ٣ القاهرة ١٩٦٩
- غومس (اميليو غرسية): مع شعراء الأندلس والتمني ترجمة د. الطاهر مكي القاهرة ١٩٧٤
- كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس القاهرة ١٩٧١
- كرامة (بطرس): الدراري السبع (الموشحات الأندلسية) بيروت ١٨٦٤
- كيلاني (كامل): نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٢٤
- الكرم: (د. مصطفى عوض) فن التوشيح. بيروت ١٩٥٩
- هدارة (د. محمد مصطفى): اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري. القاهرة ١٩٦٩
- هيكل (د. احمد): الأدب الأندلسي القاهرة ط ٦، ١٩٧١
- يافيل: مجموع الأغاني من كلام أهل الأندلس. الجزائر ١٩٠٤
- بلس (حلول) والحفناوي امقران: الموشحات والازجال. حره، الجزائر ١٩٧٢

رابعاً: مراجع أجنبية:

- Blachère (R.): Le Vizir Poète Ibn Zumruk et son oeuvre. Annales de l'Institut d'Études Orientales. II 1936.
- Gomez (Emilio Garcia): Estudio del Darat - Tiraz - Preceptiva Egipcia de la Muwassaha. Al - Andalus. Vol xxvii (1962) pp. 21 - 104
- Hartmann (M.) Das Arabische Strophengedicht. Das Muwassah, Weimar, 1897.
- Jargy (S.) la poésie populaire traditionnelle chantée au Proche - Orient, Paris - la Haye, 1970
- Levi - Provençal: Islam d'Occident. Paris, 1948.
- Menendez Pidal: Poesia arabey poesia evropa- Madrid, 1941.
- Nykl (A.R.): Hispano - Arabic Poetry. Baltimore 1946.
- Pellat (Ch.). Langues et Littérature arabes, Paris 1952.
- Pérès (H.). La poesie andalouse en arabe classique au xle siecle. Paris 1953.
- La poésie arabe d'Andalousie et ses relations Possibles avec la poesie des Troubadours. Le Cahiers du sud, 1974.
- Stern (S.N.) Hispano - Arabic strophic Poetry, Oxford 1974.
- Les Vers Finaux (Kharjas) en espanol dans les Muwashshah arabes et hebreux. Oxford, 1964.
- Les chansons mozarabes, Palerme 1953.



المحتويات

- مقدمة
- أضواء على التاريخ:
 - (فتح الأندلس - الاسم والموقع - عصور التاريخ الأندلسي: مرحلة الولاة والامارة ثم الخلافة الأموية - عصر ملوك الطوائف - عصر المرابطين - عصر الموحيدين - العصر الغرناطي - ما بعد الرحيل (مرحلة المدجنين))
 - ملاحظات حول الثقافة والمجتمع (السكان : المستعربة - المولدون - اليهود - أهل البلاد المعادون للعرب - العرب والبربر ..)
 - مكونات الشخصية الأندلسية (القلق وعدم الاستقرار - الاحساس بالنقص بإزاء المشرق - من جوانب الثقافة الأدبية الأندلسية - أوضاع المرأة)
 - الشعر الأندلسي من البدايات إلى مرحلة النضج (أوائل الشعراء - شعراء البيت الأموي - يحيى بن الحكم الغزالي).
 - شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية . ابن عبد ربه - ابن دراج القسطلي - يوسف بن هارون الرمادي -
 - الشعر في عصر ملوك المرابطين (مثال من ابن زيدون - المعتمد بن عباد)
 - من شعراء القرن السادس الهجري (مدخل عام - الأعمى القسطلي - ابن مجبر - ابن زهر الحفيد)
 - فنون الأدب الأندلسي : الموشحات